

الترجمة؛ وسيلة تلاقح حضاري

بيت الحكمة ونقل تراث الأوائل



محسن المحمدي
باحث مغربي

مهمهن بلا حدود
Mominoun Without 3orders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الملخص:

لا أحد ينكر ما للترجمة من دور هائل في تلاحح وتثاقف الشعوب بعضها مع بعض، وهو ما يؤكد التاريخ في أكثر من محطة، نذكر منها؛ اللحظة اللاتينية: حين تمّ نقل التراث الإسلامي، فكان ذلك عاملاً أساسياً في تعريف الأوروبيين بإشكاليات تمخضت بعد حوار عميق بين الإسلام والثقافات القديمة، وخصوصاً اليونانية منها، وبالضبط الأرسطية التي وصلت مشروحة عند اللاتين، مما مهد إلى «تنصير أرسطو» في القرن الثالث عشر للميلاد مع القديس توما الأكويني (1225/1274م)، ومن ثمّ، هزيمته في القرن السابع عشر للميلاد، وهو ما فتح الباب لانبثاق الزمن الحديث، وقبل ذلك، كانت هناك محطة مهمة أخرى، تجلت في بيت الحكمة زمن العباسيين؛ حيث تم نقل علوم الأوائل، خاصة الإغريق، إلى التربة الإسلامية، وهو ما تبعه فوران وغلان نظري، وقد أخذ تارةً صبغة الحوار والقبول والتبني؛ بل التقليد، وتارةً أخرى صبغة الصراع والرفض والتجديد. سنلقي نظرة حول هذه المحطة بالذات، متسائلين حول طريق نقل تراث الأوائل؟ وأسباب حمى الترجمة إلى العربية؟ وهل، حقاً، الترجمة كانت فقط في الزمن العباسي؟ ألم تكن قبلها ترجمات عند الأمويين؟ بل ألم تكن هناك ترجمات شفوية، أدت إلى انخراط العرب في المنظومة العالمية قبل حتى مجيء الإسلام؟ وما هي تأثيرات هذا النقل على البنية الإسلامية؟

مقدمة:

يحكي لنا ابن النديم في كتابه «الفهرست»¹ وهو أشمل وثيقة أحصت لنا الأعمال الفكرية إلى آخر القرن الرابع الهجري، قصة عن الخليفة العباسي المأمون (833/813م)، وهي: (رأى المأمون في منامه رجلاً أبيض اللون، مشرباً بحمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، أجلى الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالس على سريره. قال المأمون: وكأنني بين يديه قد ملئت له هيبة. فقلت: من أنت؟ قال: أنا أرسطاطاليس. فسررت به، وقلت: أيها الحكيم، هل أسالك؟ قال: سل. قلت: ما الحسن؟ قال: ما حسن في العقل. قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن في الشرع. قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن عند الجمهور. قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم! لا ثم. وفي رواية أخرى، قلت: زدني. قال: من نصحك في الذهب، فليكن عندك كالذهب، وعليك بالتوحيد. فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب²).

وروى ابن أبي أصيبعة هذه القصة بشكل آخر، فقال: إن المأمون رأى في منامه كأن شيخاً بهي الشكل، جالساً على منبر، وهو يخطب، ويقول: «أنا أرسطاطاليس»، فانتبه من منامه، وسأل عن أرسطاطاليس، فقيل له: رجل حكيم من اليونانيين، فأحضر حنين بن إسحاق؛ إذ لم يجد من يضاهيه في نقله، وسأله نقل كتب الحكماء اليونانيين إلى اللغة العربية، وبذل له الكثير من الأموال والعطايا³.

تروى هذه الرؤيا، سواء بعيون ابن النديم، أو بعيون ابن أبي أصيبعة، عادة من أجل فهم؛ لماذا قام المسلمون بترجمة العلوم المسماة عقلية، أو كما كانت تسمى أيضاً (علوم الأقدمين، أو الأوائل، أو العلوم الدخيلة)؟ وكما نلاحظ، هي قصة خرافية، لا يصح أن تكون سبباً نفهم من خلاله حمى الترجمة التي شهدتها المسلمون، فرواية ابن أبي أصيبعة مبالغ فيها؛ إذ لا يعقل أن يكون المأمون، لم يسمع باسم أرسطو من قبل، حتى يأتيه في المنام، ويقول له: أنا أرسطو!، أما حكاية ابن النديم، وإن صحت، دللتنا على أن الحلم كان انعكاس صورة طبيعية، لما كان يفكر فيه المأمون في اللحظة³. فلا يمكن، إذن، التعويل على أحلام

1- ابن النديم، «الفهرست»، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ص 339. ضمن مقالة الفلاسفة، دون تاريخ، وهي قصة يتداولها الباحثون بشكل كبير، انظر مثلاً:

- أحمد أمين، «ضحى الإسلام»، الجزء الأول، الطبعة السادسة، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة التاليف والترجمة والنشر، 1964م، ص 267

- د. جورج صليبا، «العلوم الإسلامية وقيام النهضة الأوروبية»، ترجمة: د. محمود حداد، ط1، دار أبو ظبي للثقافة والتراث، 2011م، ص 92. وقد اعتمد نسخة «الفهرست» المحققة من طرف يوسف علي الطويل، بيروت، 1996م.

أما ابن النديم؛ فهو محمد بن إسحاق النديم، الملقب بأبي الفرج، والمتوفى سنة 385هـ، وهو وراق ونساح وكاتب، وكان له دور كبير في توثيق أهم ما كتب عند المسلمين إلى حدود القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ولولاه لضاعحت أسماء وأوصاف الكثير منها، خاصة بعد النكبات التي أثقلت المكتبة العربية، ونقصد هنا بالذكر: «غزو التتار». هو الكتاب الذي يعد مرجع كل الباحثين المسلمين والمستشرقين، وكان عمدة ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء، والقفطي في أخبار الحكماء. انظر مقدمة كتاب الفهرست المذكور أعلاه.

2- أحمد أمين، المرجع أعلاه، ص 286. وابن أبي أصيبعة: هو موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، المعروف بابن أبي أصيبعة. صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، وقد ازداد في دمشق، وتوفي عام 668هـ. انظر: دكتور عامر النجار محقق كتابه المذكور، الجزء الأول، دار المعارف القاهرة، طبعة 1996م، ص 7

3- أحمد أمين، مرجع أعلاه، ص 268

ك هذه لتفسير حركة هائلة من الترجمة، لنقل تراث الشعوب الأخرى إلى العربية، وبوعي شديد مخطط له، ومدعوم من طرف الخلفاء، وبمؤسسة كاملة الأركان؛ لهذا الشأن سميت بـ (بيت الحكمة). فما هي الأسباب العميقة لهذا الارتقاء في حضن الثقافة العقلية العالمية آنذاك؟ ولماذا كثرت الفلسفة والعلوم القديمة في التربة الإسلامية؟ ولم لجأ المسلمون إلى ترجمة العلوم من الأجانب؟ وما الحاجة إلى ذلك؟ ولكن قبل محاولة الإجابة، ينبغي بداية الوقوف عند مراحل نقل تراث الأقدمين إلى اللغة العربية.

أولاً: مراحل نقل تراث الأولين قبل الإسلام

أ- المراكز الحضارية قبل ظهور الإسلام

لقد عرفت البشرية عبر تاريخها الطويل، منارات فكرية عديدة، كانت عبارة عن مراكز علمية قائمة الأركان؛ كأكاديمية أفلاطون، التي أسست سنة 387 ق.م، في إحدى ضواحي أثينا، وبالضبط بالقرب من حدائق البطل الإغريقي أكاديموس، وهو ما يفسر لنا التسمية الشهيرة «الأكاديمية»، التي ما تزال سائدة إلى حد الساعة؛ فهناك ألقى أفلاطون دروسه، وألف كتبه، وكان لا يسمح بالدخول إليها إلا لمن كان متميزاً في الرياضيات، إلى درجة أنه نقش على باب الأكاديمية العبارة الشهيرة: «من لم يكن مهندساً، فلا يدخل علينا»، وانتقلت الأكاديمية بعد أفلاطون إلى وسط المدينة، وظلت مزدهرة حتى أمر الإمبراطور الروماني (جوستينيان) بإقفالها نهائياً عام 529م؛⁴ لأنه كان يعتبرها معهداً وثنياً. وكذلك، نجد مركزاً آخر لتلميذ أفلاطون، وهو ليسيوم أرسطو، الذي ظهر سنة 335 ق.م، (وهي مدرسة لم تلفظ أنفاسها الأخيرة إلا بعد أن سلمت الشعلة إلى متحف الإسكندرية، الذي احتفظ بها متوهجة). ناهيك عن ظهور مراكز أخرى، والتي انتشرت في الشرق جراء التلاقح بين الثقافة الإغريقية والثقافة الشرقية، والتي دفعت بها فتوحات الإسكندر المقدوني إلى أبعد مدى. ونذكر هنا: مركز الإسكندرية، وأنطاكية، وحرّان، والرّها، وجنديسابور، ومرو،... إلخ. وسنقف، بالضبط، عند مدرسة الإسكندرية؛ لوضعها المتميز، وتأثيرها العميق في توجيه الدراسات الفلسفية والعلمية، قبل مجيء الإسلام وبعده.

ب- مدرسة الاسكندرية:

يرجع تأسيس مدينة الإسكندرية إلى الإسكندر المقدوني، سنة 331 ق.م، وعندما مات في بابل سنة 323 ق.م، تولى حكم مصر أحد رفاقه؛ بطليموس⁵. وقد كان مقدونيا، وكان له الفضل في تأسيس متحف الإسكندرية (معهدا العلمي)⁶. إن الإسكندر المقدوني، وهو ينشئ مدينة الإسكندرية، كان يؤسس لمشروع

4- د. محمد عبد الرحمن مرحبا، "تاريخ الفلسفة اليونانية"، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط1، 1993م، ص 224

5- لا ينبغي الخلط بين هذا الملك، وعالم الفلك الشهير بطليموس في القرن الثاني الميلادي. انظر: جورج سارتون، "العلم القديم والمدينة الحديثة"، ترجمة: عبد الحميد صبرة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، طبعة 2010م، ص 28

6- د. نجيب بلدي، "تمهيد لتاريخ الإسكندرية وفلسفتها"، دار المعارف، مصر، 1962م، ص 4

حضاري هائل؛ فغزوه للشرق ككل، كان إعداداً لحكمة جديدة؛ هي الحكمة الإسكندرية، والتي دامت سبعة قرون (من القرن 4 ق.م إلى حدود القرن 3م)؛ حيث برزت بوادر انتصار الدين المسيحي، سياسياً واجتماعياً⁷، وإن كان هناك بعض الباحثين يؤكدون أن مدرسة الإسكندرية قد استمرت مدة أطول من ذلك؛ أي حتى بعد ظهور الإسلام⁸.

إن حياة الإسكندر الأكبر وبطولاته في الحرب⁹، غلب عليها، في كثير من الأحيان، روايات خرافية، لكن على الرغم من ذلك، لا يمكن إنكار أن شخصيته، وقوته الفكرية والروحية، كانت المسؤولة عن ذلك التحول العميق الذي حدث في الإسكندرية؛ ففتوحات الإسكندر المقدوني الواسعة لكثير من بلاد آسيا وإفريقيا في القرن الرابع قبل الميلاد، كانت سبباً رئيساً في انتشار الثقافة اليونانية في الشرق، انتشار النار في الهشيم؛ إذ إن الإسكندر الأكبر، كان يجمع بين شجاعة القائد العسكري، بحكم تربيته العسكرية الفذة، والتي سمحت له بتحقيق طموحات والده السياسية؛ وهي جمع شمل اليونانيين، واسترجاع المستعمرات اليونانية. وهو ما تحقق وزيادة؛ حيث وصل الإسكندر حتى الهند، كما هو معروف¹⁰، كما أنه كان رجلاً له حكمة الفيلسوف، بحكم كونه تلميذاً لأرسطو: فيلسوف اليونان بامتياز، وصاحب مدرسة الليسيوم في أثينا، والذي وطّد في نفس تلميذه إرادة نشر الفكر اليوناني في البلاد الذي يفتحها، ناهيك عن أن تربية أرسطو للإسكندر، جعلته يصطحب معه في فتوحاته الآسيوية، العلماء والأدباء؛ بل والفلاسفة أيضاً، ومن بينهم؛ الفيلسوف المشهور ببيرون¹¹. وهو الأمر الذي سيجعل الشعب اليوناني، مع الوقت، يختلط بالشعب الآسيوي؛ فغزوات الإسكندر، جعلت العادات والتقاليد الإغريقية، تزداد على نطاق واسع، وقد صبغت آسيا بالصبغة الهلينية¹²، إلى درجة أنه يحكى أن: الإسكندر أرسل آلافاً من أبناء ضباط الجيش الفارسي، ليتعلموا اللغة اليونانية¹³.

7- نفس المرجع، ص ص 7-8

8- انظر تفاصيل ذلك: ضمن الدراسة التي أنجزها سعيد اليوسكلوي، وهي بعنوان: "مدرسة الإسكندرية وبعض عناصر استمرارها في العصر الإسلامي"، ضمن كتاب جماعي بعنوان "مؤسسات العلم والتعليم في الحضارة الإسلامية"، تنسيق بناصر البعزاتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، طبعة 2008م.

9- كان الإسكندر، يقتدي بنموذج المحارب المثالي، والذي ما هو إلا (أشيل) بطل ملحمة الإلياذة، وأشجع رجال اليونان في زمنه، وبطل حرب طروادة، وهرقل بطل الإغريق، ابن اله الآلهة زيوس من الفانية ألكمين، والذي اشتهر بقدرته الفائقة على القضاء على أفعط الأهوال. لقد تلقى الإسكندر المقدوني، منذ حداثة سنّه، دروساً في الإلياذة، على يد أستاذه أرسطو الفيلسوف. وهو ما جعله يستلهم أبطالها، ويتصرف وكأنه له صلة بالآلهة، ومما زاد من هذا الإيمان؛ أن المصريين اعتبروه فرعوناً، ومنحوه ألقاباً من قبيل؛ "هورس"، أو الأمير القوي حامى البلاد من هجوم الأعداء، "صديق أمون"، "ابن رع...". انظر: نجيب بلدي، مرجع سابق، ص ص 12-13

10- المرجع السابق، ص 16

11- نفس المرجع، ص 17

12- يقسم المؤرخون عادة الحضارة اليونانية إلى عشرين: عصر "هيليني"، وعصر "هيلينستي"، فالأول: هو عصر الحضارة اليونانية في نشأتها، وتطورها، ونضجها في بلاد اليونان ومستعمراتها بوجه عام، وحول أثينا بوجه خاص، ويبدأ قبل القرن السادس، ويمتد حتى انتصار الدولة المقدونية على بلاد اليونان. أما العصر الثاني: فبدأ عند الإسكندر، وامتد عدة قرون بعده، وامتاز بانتشار الحضارة "الهلينية" ذاتها، لا في بلاد اليونان ومستعمراتها فحسب؛ وإنما في حوض البحر المتوسط بين مصر وإيطاليا، وفي الشرق الأدنى، وفي شرقها الأقصى أيضاً. انظر: نجيب بلدي، مرجع سابق، ص 54

13- نفس المرجع، ص 19

الأمر الذي يبرر كيف أصبحت اليونانية لغة عالمية ومسيطرة آنذاك؛ ففي هذا العصر الإسكندري، وفي مدينة الإسكندرية بالضبط، تمت ترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية.

إن أغلب سكان الإسكندرية كانوا مصريين، ولكن الطبقة الحاكمة كانت مقدونية أو إغريقية، وعندما كثر ثراء المدينة شدَّ الرحال إليها العديد من الأثيوبيين، والأحباش، والإفريقيين الذين اندمروا مع النيل، والسوريين، والفرس، والعرب، والهندوس، إلخ... وسرعان ما صارت الإسكندرية أكثر مدن الدنيا اصطباغاً بالطابع العالمي¹⁴. تبقى الإشارة إلى أن المتحف كان ممولاً حكومياً، وكانت أبوابه مفتوحة لمختلف العلماء والزوار، كما كان يشرف عليه، في غالب الأحيان، يونانيون قادمون من أثينا، ومنهم تلاميذ لأرسطو. ناهيك عن أنه كان به نظام «كالدالية»؛ حيث يعيش فيه العلماء عيشة مشتركة، كرهبان دير من الأديرة تتكلف بنفقاتهم الحكومة¹⁵.

إن البحث في مدرسة الإسكندرية وفلسفتها، يحتاج إلى مبحث كامل سيخرجنا عن موضوعنا، ونحن نريد إلقاء نظرة فقط على هذا المركز، الذي سيكون تأثيره قوياً على الثقافة الإسلامية، وسنعمل الآن على ذكر بعض الأسماء اللامعة التي كتبت بالخط العريض في التاريخ، والتي ستلقى اهتماماً واسعاً عند المسلمين، ترجمةً وبحثاً وإضافةً؛ كإقليدس¹⁶ في القرن الثالث ق.م. الذي تلقى تعليمه في أثينا، ودرس الرياضيات في أكاديمية أفلاطون، واستمدَّ بعض معارفه من الفيثاغوريين، أما منهجه، فقد كان أرسطياً، ونبوغه سيكون في الإسكندرية في عهد بطليموس الثاني؛ إذ كان على اتصال بالمتحف والمكتبة، وله كتاب مشهور اسمه «الأصول»؛ وهو كتاب جامع لعلم الهندسة، ومرتب بإحكام، إنه ثمرة تاريخ الرياضيات في زمانه.

نجد أيضاً عالماً آخر معروفاً جداً؛ هو أرخميدس: صاحب نظرية الأوزان والروافع، زار الإسكندرية، وأقام فيها مدة طويلة في القرن الثالث قبل الميلاد. وإراتوستين: الذي عاش خلال الفترة بين 276 ق.م - 194 ق.م، ووفد إلى الإسكندرية في عام 253 ق.م، ليقضي فيها بقية عمره، ويشغل منصب أمين مكتبة متحف الإسكندرية العظيم، وبقدر ما كان فلكياً، فهو جغرافي أكثر، وقد أصبح مشهوراً، نظراً لطريقته في حساب محيط الأرض¹⁷.

14- جورج سارتون، مرجع سابق، ص 27

15- نجيب بلدي، مرجع سابق، ص ص 37-38

16- نفس المرجع السابق، من ص 51 حتى 60. يقدم فيه المؤلف تفاصيل حول محتوى كتاب الأصول.

17- د. علي حسن موسى، "أعلام الفلك في التاريخ العربي"، منشورات وزارة الثقافة السورية، طبعة 2006م، ص 27

ولا يمكن المرور على الإسكندرية، دون الوقوف على باعها الكبير في مجال الطب، وهنا، نستحضر الطبيب جالينوس، المتوفى سنة 199م، والذي انطلق من أعمال أبقرات¹⁸، الملقب بـ (أبو الطب)، والمتوفى سنة 375 م، وهو صاحب نظرية «الأخلاق الأربعة»¹⁹، وأهم من نبّه إلى ضرورة مراقبة الأعراض في المرض، قبل الذهاب إلى الأسباب، كما تعد فكرة سرية العلاج بين الطبيب والمريض من إنجازاته الأساس، ينسب إليه القسم الأخلاقي الشهير للأطباء، والذي وثّقه لنا ابن أبي أصيبعة، في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»²⁰.

التهم جالينوس أعمال أبقرات ليزيد عليها؛ فقد كان يقوم بتشريحات للحيوان الحي والميت لدراسة بنيتها الداخلية، وعقد مقارنة بينها وبين الإنسان، كما كان أول طبيب يثبت أن الشرايين والأوردة تحملان الدم، واعتقد، أيضاً، أن المخ هو مصدر التفكير، وليس القلب كما كان يعتقد أرسطو وغيره، وكان يشجع على العلاج بالفصد، لإزالة ما افترض أنه دم زائد، وتطهير الأمعاء، وإعطاء أدوية تسبب القيء. إن أعمال جالينوس، ستكون منطلقاً للطب العربي/الإسلامي، الذي سيعمل على إضافة وتصحيح بعض معطياته، مع كل من الرازي المتوفى سنة 925م، والذي له كتاب الشكوك على جالينوس، وكتاب الحاوي في الطب. ومع ابن سينا المتوفى سنة 1037م، بكتابه القانون في الطب. وأبو القاسم الزهراوي المتوفى سنة 1013م، شيخ الجراحين في الأندلس، بكتابه التصريف.

• الفلك السكندري:

لا يمكن الخروج من العصر الإسكندري، دون وقفة مع شخصية فذة تهتم موضوعنا بشكل مباشر: إنه كلوديوس بطليموس، فهذا الرجل المشهور، سيرهن الفلك العالمي إلى حدود عصر النهضة. فمن هو؟ وماهي إنجازاته؟

يعرف باسم كلوديوس بطليموس أو بطليموس، عاش حوالي 90 - 170 بعد الميلاد، إنه المصري الإسكندراني، من أصل يوناني، ولد في صعيد مصر في مدينة بطلميّة، الواقعة في إقليم طيبة، وإليها نسب، وانتقل من مدينة مولده إلى الإسكندرية، طلباً للعلم، باعتبارها أهم مركز فكري وعلمي في عصره، وهناك قام

18- ولد أبقرات سنة 450 ق.م، في جزيرة كوس الصغيرة بالقرب من سواحل آسيا الصغرى، وكان ينتمي إلى طبقة ثرية، كما عاصر عدة علماء وفلاسفة منهم سقراط، ويعد عند الباحثين مؤسس الطب، ألف هو وتلاميذه في علم الطب، وأعراض الأمراض، والأوبئة، والحميات، وتكون الأجنة، وعلاقة البيئة والتغذية بالصحة، والتربية النفسية، ومعه، كما يرى المتخصصون، بدأ الطب يغادر تلك الممارسة العفوية المرتبطة بمعتقدات وطقوس ذات مرجعية أسطورية، نحو لحظة أصبح فيها العلاج يستند إلى معرفة عقلية نقدية، وخبرة صناعية. انظر في هذا:

- بناصر البعزاتي، "الفكر العلمي والثقافة الإسلامية"، دار الأمان، الرباط، 2015م، ص 160

- جان شارل سورنيا، "تاريخ الطب"، عالم المعرفة، العدد 281، الكويت، مايو 2002م، ص ص 46-47

19- هي نظرية متجاوزة، ومجمل القول فيها: إن الجسم يحتوي على أربعة أخلاط: الدم، والبلغم، والسوداء، والصفراء، وعلاقة بعض هذه الأخلاط ببعضها تقرر صحة المرء ومزاجه. انظر: ابن أبي أصيبعة، "طبقات الأطباء"، تحقيق ودراسة: د. عامر النجار، دار المعارف، 1996م، ص 202

20- انظر نص القسم، ص 205، من طبقات الأطباء، المرجع أعلاه.

بأبحاثه الفلكية المشهورة²¹، وهو صاحب أهم كتاب في علم الفلك القديم، بعنوان المجسطي، واسمه الأصلي (المؤلف الرياضي الكبير) يجمع فيه أهم الأرصاد والمعارف الفلكية المتراكمة، منذ البابليين والمصريين والإغريق إلى حدود الفلكي الكبير «الأبرخس»: الذي عاش خلال القرن الثاني قبل الميلاد²². ولد بطليموس في مصر، ونبغ في الإسكندرية، في زمن كانت الهيمنة الرومانية، وكان محظوظاً بأن يعيش في ظل بعض خيرة الأباطرة²³، حيث السلم والبناء. لقد كتب بطليموس بالإغريقية، رغم أن العهد كان رومانياً، ولغة الإدارة والتجارة والقانون لاتينية؛ فاللغة اليونانية: كانت لغة النخبة المفكرة، ولا مناص منها آنذاك، ولنقل: إن العالم الذي عاش فيه بطليموس، هو عالم روماني لاتيني، ولكن بمقومات ثقافية إغريقية²⁴.

كان بطليموس شارحاً، ومعلماً ممتازاً، وهو لم يكتب رسالة أو مقالة قصيرة؛ بل كتباً مطوّلة، ذات طابع موسوعي، ومرتبّة بإحكام، إلى درجة أنه غطى على أسلافه، وطوى بعضهم النسيان لصالحه؛ إذ تجد اسمه في القرون الوسطى ساطعاً في كتابات الفلكيين اللاحقين عليه، بمن فيهم فلكيو العالم العربي/الإسلامي.

ج - مدينة جنديسابور:

إذا كانت مدرسة الإسكندرية في مصر قد حافظت على تقاليد اليونان، وأنجبت العديد من العلماء ذائعي الصيت؛ كجالينوس في الطب، وإقليدس في الرياضيات، وبتليموس في الفلك، كما رأينا أعلاه؛ فإن التراث الإغريقي، سينتقل، أيضاً، نحو سوريا، خاصة في مركزي «نصيبين»، و«الرها» اللتين كانتا من أشهر المدارس الطبية في أواخر القرن الخامس الميلادي. ليرحل بعد ذلك بعض السوريين، خاصة النساطرة منهم، نحو الدولة الساسانية، هرباً من اضطهاد أباطرة بيزنطة وأساقفتها للمذهب النسطوري؛ (نسبة إلى البطريرك نسطور)، المخالف عقدياً لتعاليم الكنيسة حول طبيعة المسيح، لتتشكل مدرسة كبرى في جنديسابور، وتصبح في أواخر القرن السادس للميلاد أعظم مركز ثقافي؛ بل واسطة للتلاقح الحضاري بين النسطوريين بلغتهم السريانية؛ أي النسخة المعدلة عن الآرامية، والتي كانت لغة المسيح عليه السلام)، والثقافة الفارسية بلغتها الفهلوية²⁵، وإذا علمنا أن مدينة جنديسابور، قد افتتحها المسلمون، فهذا سيجعلنا نفهم كيف سينتقل التراث الإغريقي ممزوجاً بالسورية والفارسية، إلى الثقافة الإسلامية العربية.

21- د. علي حسن موسى، "أعلام الفلك في التاريخ العربي"، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2002م، ص 28

22- بناصر البعزاتي، "الفكر العلمي والثقافة الإسلامية"، مرجع سابق، ص 287

23- كان أولهم: الإسباني تراجان، الذي حكم ما بين سنة 98 إلى 117م، وقام بالعديد من المنجزات؛ كتعبيد الطرقات، وإنشاء المكتبات، وإقامة الجسور على نهر الدانوب ونهر تاجة. وجاء من بعده هادريان: الذي حكم من سنة 117 إلى 138م، وكانت له منشآت عظيمة في أثينا وروما وتيفولي. ثم أنطونيوس بيوس: الذي تقلد الحكم من سنة 138 إلى 161م. فحين يتحدث المؤرخون عن عهد السلم الروماني؛ فهم يقصدون السنوات الأربع والأربعين التي حكم فيها كل من هادريان وأنطونيوس. كما تجدر الإشارة إلى أن العلم في القرن الثاني بعد الميلاد، كان رومانياً من الناحية السياسية، ولكن أهم ما فيه أنه كان إغريقياً من حيث الأصول؛ ففي هذا العهد، كانت تتداول لغتان؛ اللغة اللاتينية للقانون والإدارة والتجارة، واللغة اليونانية للعلم والفلسفة. انظر: جورج سارتون، مرجع سابق، ص ص 88- 89

24- جورج سارتون، مرجع سابق، ص 90

25- انظر: مقدمة ابن أبي أصيبعة، «طبقات الأطباء»، تحقيق ودراسة: د. عامر النجار، دار المعارف، 1996م.

إن مدينة جنديسابور، قد أنشئت من طرف الملك الساساني سابور الأول، عام 271م في خوزستان جنوب غربي بلاد فارس، وأقام بها الشاه كسرى أنوشروان (الذي حكم ما بين 531 و578م)، مركزاً علمياً وطبياً عام 531م، اشتمل على مدرسة تدرس فيها العلوم والفلسفة، وعلى مكتبة للمطالعة والترجمة، ومستشفى للعلاج، ومرصد للبحث الفلكي. ولقد تعزّزت مكانة هذا المركز في جنديسابور، بعد أن أغلق الإمبراطور جستنيان الروماني أكاديمية أثينا عام 529م، فهاجر الكثير من علمائها إليها.

وكان يدرس في هذه المدرسة طلاب من مختلف الثقافات، وبينهم قلة من العرب، وبقيت منارة مشعة، إلى أن سرقت منها بغداد الأضواء عند نهاية حكم المنصور العباسي وبعده، وبدأت هجرة العلماء تتحول، من جديد، إلى التربة الإسلامية وباللغة العربية²⁶.

واتصل العرب بعد الإسلام بالحضارات القديمة، وحرصوا على جمع مخطوطاتها، والحرص على شرائها، وخاصة الإغريقية منها، والتنقيب عن بعضها المهم في الأقبية والسرايب؛ بل المثير، هو التنازل للبرنطيين عن تعويضات الحرب، مقابل تقديم المخطوطات العلمية، خاصة في العهد العباسي، وبالضبط في زمن المأمون، وبهذا يكون العرب وبحماسة منقطعة النظير، قد قاموا بأكبر عملية إنقاذ للتراث الإنساني، خصوصاً، اليوناني منه، والذي كان عرضة للفساد والتلف جراء الإهمال.

ولقد جند الخلفاء العباسيون، وبرعاية واعية ومستنيرة، جماعة علمية هائلة معظمها من السريان، للقيام بمهمة تعريب العلم، ولعل أشهر المترجمين المشهود لهم بالدقة والنقل المنقح، نجد؛ حنين بن إسحاق، الذي يقال عنه: إنه يأخذ وزن الكتاب المترجم ذهباً. ولم يكن بيت الحكمة يضم المترجمين فقط؛ بل النساخين، والخازنين، والمناولين الذين هم حلقة الوصل بين بيت الحكمة ورواده، فكان بيت الحكمة، حقاً، ملتقى الحضارات آنذاك، وجمع في جوفه تراث البشريّة. لكن يبقى الملفت للنظر؛ هو أن الكتب المنقولة عن اليونانية، كانت محصورة في فنون العلم والفلسفة، دون أن يتعداها إلى الأدب والشعر أو الروحانيات، فلم يترجم العرب، مثلاً: هوميروس، أو سوفوكل، وكان لديهم ما يكفي من الفصاحة والبيان، ولديهم الإسلام. أصبحت الترجمة ظاهرة اجتماعية، وليست ترفاً أو مسألة شخصية تهم هذا الحاكم أو غيره، والدليل على ذلك: هو استمرارية عملية النقل لمدة طويلة، كما أصبح الأمر قضية دولة، ناهيك عن التمويل والعمل المؤسسي، الذي تم تنويعه في بيت الحكمة، والذي سهر على متابعة الترجمة على أسس منهجية، شكّلت تقليداً علمياً كاملاً، وهو ما سيمهد للإبداع الحضاري الإسلامي.

ثانيًا- أثر نقل تراث الأقدمين على المسلمين²⁷:

إن نقل تراث الأقدمين إلى العربية، كان له تأثير بالغ على الحضارة الإسلامية؛ بل على الحضارة الإنسانية جمعاء، وإذا ما كنا نود تحديد بعض ملامح هذا التأثير، فسنجده في خصوبة الفكر الإسلامي، بعد حصول الترجمة، وتحول اللغة العربية إلى مستوى اللغة القياسية في القرون الوسطى، وذلك كالآتي:

1- أثر الترجمة في الفكر الإسلامي:

من المتفق عليه، أن الحضارة الإسلامية لم تنطلق من فراغ، أو كانت تنتظر حصول الترجمة لتصبح ثقافة كاملة الأركان؛ بل انطلقت تجوب العالم، ومعها القرآن الكريم.

فلنبداً، إذن، من البدايات:

أ- القرآن الكريم: البؤرة المؤسسة للعلوم الإسلامية

مثل ظهور الإسلام في مستهل القرن السابع الميلادي، حدثاً عالمياً ضخماً، نجمت عنه نتائج هائلة، تجاوزت الحدود الجغرافية لشبه الجزيرة العربية نحو العالمية؛ فالإسلام لعب الدور الأساس في جعل حركة التاريخ في القرون الوسطى، تنعطف بالبشرية إلى منحى لن تعود إلى ما قبله قط، وكما يثير المحررات الذي يشق الأرض الغبار من حوله، ويقلبها قلباً، كذلك أثار الإسلام عقول العرب وأفندتهم، وقلب أوضاع المنطقة رأساً على عقب²⁸.

لم يؤدّ اعتناق العرب الإسلام إلى مجرد القضاء على قليل من العادات التي كانت سائدة آنذاك، أو تصحيح بعض السلوكيات وتصويبها؛ بل الأمر أكبر من ذلك بكثير؛ فقد حدثت هزة على مستوى الذهن، جعلت العربي، حديث العهد بالإسلام، يفكر بطريقة أخرى، تخرج به من العفوية والسياسة التلقائية، نحو الفكر المنظم، والمؤطر، والمسلح بمسلّمات وأدوات مفاهيمية، مكنته من اقتحام العالم بثقة عالية، وما نشأة العلوم الإسلامية، سواء الأصيل منها، أو الخادمة لهذا الأصل، إلا دليل على ذلك. وبلغه هذا العصر، نقول:

27- سنستعين بموقف الدكتور محمد عبد الرحمن، لتوضيح بعض تأثيرات الترجمة على الحضارة الإسلامية، وذلك انطلاقاً من كتابه: "المرجع في تاريخ العلوم عند العرب"، دار العودة، بيروت، طبعة 1998م، خاصة في الفصل الثاني، المخصص لنقل العلوم الدخيلة إلى اللغة العربية، والذي يبدأ من الصفحة 188

28- د. محمد عبد الرحمن مرحباً، "من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية"، وتحديداً، الفصل المخصص لحركة محمد صلى الله عليه وسلم، وأبعادها الخطيرة في التاريخ والحضارة، بدءاً من الصفحة 249، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، 2007م.

إن الإسلام نقل العرب، والعالم كله آنذاك، من منوال «باراديغم» (نموذج ذهني موجه للرؤية)، إلى منوال «باراديغم» جديد²⁹.

ولاشك أن القرآن الكريم: هو أول كتاب عرفه المسلمون، حملوه معهم في كل فتوحاتهم، وهو عبارة عن نسق هائل من الآيات المعالجة لقضايا الوجود والمعرفة والقيم، فكل آية من القرآن موضوع لغرض، وتؤدي إلى غاية؛ إما أن تقرر عقيدة، أو تأمر بصلاة، أو تشن قانوناً، أو تندد بعدو، أو تبشّر بنصر، أو تنظم عبادة، أو تنصّ على مبدأ، أو تعلم حكمة، أو تمنع عادة، أو تروي قصة، أو تدعو إلى موعظة، أو تحض على قتال. كما فيه صور شتى من المعنويات المتجسدة، والأمثال المضروبة، والرموز المعلمة؛ فهو يصور البخل، والشح، والتهرب من زكاة الأموال، ومؤامرة الأغنياء لأكل حقوق الفقراء، صوراً جميلة معبرة، أجمل ما يكون التعبير، وأروع ما يكون المثل، للترغيب والترهيب، وكذلك، يصور المعاصي تصويراً متجسداً ومتحركاً، تتخلع له القلوب، وترتاع له الأفئدة في فيلم سريع خاطف معبر في جبروت وعظمة³⁰.

القرآن: وهو الوحي الربّاني، سيلتف حوله المسلمون، والعلماء خاصة، قصد توثيقه وتحقيقه، كمرحلة أولى، تمهيداً لاستمداد المعنى منه، وتمثل دلالاته³¹؛ فهو يشكل البؤرة المؤسسة للحضارة الإسلامية، وهو المحور الذي تدور حوله كل المعارف، وكل العلوم؛ فالعلوم، سواء الأصلية أو الخادمة للأصلية؛ أي المسددة لها، كانت عبارة عن أدوات معينة للنظر في القرآن، أو تتعلق به، وتتفرع عنه³²، وهو بمثابة المولد الكهربائي، الذي يحرك ويثير النشاط، والعمود الفقري للأمة الإسلامية كلها. فكل عناية المسلمين كانت متجهة إليه، حفظاً له، ومحافظةً عليه، وتطبيقاً لتعاليمه، فدرسوه جملة جملة، وكلمة كلمة، وفي بعض الأحيان، حرفاً حرفاً، بغيرة وتقوى وورع لا نظير لها بين المنقبين في النصوص الدينية، فأعدّ هذا التحليل نفوسهم لتمرينات الأصوليين والمناطق، وتحليلات الفلاسفة وبراهينهم، وفي ظله نشأت العلوم الإسلامية المتنوعة، ومن أجله قامت. فشغلت الدراسات القرآنية العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، فهو كالساق قامت عليه الفروع، وامتدت الأغصان، أو كالشمس دارت حولها الكواكب³³.

إن الفكر الإسلامي، اعتمدت في جوفه عوامل داخلية وباطنية، لكنه كان مهياً أيضاً لتلقي اللقاح الخارجي؛ فالمسلمون، قبل الترجمة، ليسوا هم أنفسهم بعدها، والفرق ليس فقط كمياً؛ بل نوعياً أيضاً؛ حيث انطلق في

29- وأستخدم، هنا؛ مفهوم الباراديغم، كما روجه العالم الأمريكي "توماس كون" في كتابه "بنية الانقلابات العلمية"، والذي يقصد به، النموذج الموجه؛ أي الإطار النظري، والأساس الذي يسمح بطرح المشكلات، وطرق حلها عند متحد علمي ما. بعبارة أخرى، الباراديغم: يعني مجموع القواعد والمسلمات والمفاهيم والأدوات التي يتحرك من داخلها العلماء، فهم ينظرون إلى الواقع بعين الباراديغم، وهو بمثابة الخلفية التي تسمح بروية دون أخرى. انظر توماس كون "بنية الانقلابات العلمية"، ترجمة: سالم يفتوت، دار الثقافة، ط1، 2005م، ص 15

30- د. محمد عبد الرحمن مرحبا، مرجع سابق، ص ص 253-254

31- انظر: الباحث المغربي الدكتور محمد بنعمر، "الدرس اللغوي عند الأصوليين"، في دراسة موجودة في موقع مركز نماء للدراسة والأبحاث. nama-center.com

32- نفس المرجع، ص 3

33- د. محمد عبد الرحمن مرحبا، مرجع سابق، ص 256

رحاب واسعة، خلقت لنا حضارة أنارت دروباً في القرون الوسطى، فكما كان اليونان، تلامذة المصريين والبابليين والهنود، أخذوا عنه، فالأمر نفسه حدث مع العرب؛ حيث تتلمذوا على يد اليونان، واغتنوا بأفكارهم، وإذا بهم يحلّقون في آفاق وعوالم جديدة.

الترجمة، جعلت العرب يدخلون باب الإنتاج العلمي الأصيل؛ فأنجبوا لنا الكندي، والفارابي، والبتاني، والبيروني، والرازي، وابن سينا، وابن الهيثم، والزهر اوي، وابن النفيس، وابن رشد، والبطروجي، والطوسي، وابن الشاطر، واللائحة جد طويلة؛ لأن المسلمين كتبوا في كل صنوف العلوم، وبنهم شديد ومذهل.

إن حبّ العرب للكتاب ظاهرة ملفتة³⁴؛ فحين ترسخت الحضارة في العصور الإسلامية، ازدهر التأليف وكثرت الكتب، وكان لتدوين الحديث النبوي أثره في ازدهار التأليف، وحين عمدوا إلى تفسير القرآن الكريم، رأوا الحاجة إلى معرفة اللغة، ورواية الشعر، فجمعوا الدواوين، ليستدلوا بالشعر على فهم ألفاظ القرآن الكريم، وبعد حمى الترجمة لعلوم الأوائل، انتقل التأليف إلى كل صنوف المعارف البشرية الأخرى، بمعنى أنه؛ لم يعد الاقتصار فقط على العلوم المسماة شرعية؛ بل تعدتها إلى العلوم، المسماة آنذاك (الدخيلة) أي علوم الأمم الأخرى، من يونان، وروم، وفرنس، وهند. من قبيل؛ الفلسفة، والمنطق، والطب، والفلك، والطبيعة، ... إلخ. وعصر المأمون شاهد على هذا الاهتمام الملفت بالكتاب، خاصة بعد رعايته الشخصية لبيت الحكمة، كل هذا سيجعل الكتاب ينتشر في كل الأمصار الإسلامية، فكثرت خزائن الكتب، والمكتبات العامة والخاصة، وظهرت مهنة الورّاق في كل مكان³⁵. وتفنّن الكتاب، والخطاطون، والمزوّقون، في صنع الكتاب، وتجليده، وتذهيبه، وتزيينه. وتفاخر الخلفاء والعلماء بحيازة الكتب وجمعها من أقاصي البلدان، والاعتزاز بها³⁶.

والغريب أنه وعلى الرغم مما نزل بالعالم الإسلامي؛ من نكبات، وحروب، واحتلال، وحرق للكتب وتدميرها وإغراقها، فإن ما وصل من كتب التراث، هو عدد هائل؛ فالمخطوطات المكتوبة بالعربية، والموجودة في المكتبات والمتاحف الفرنسية، والألمانية، والإنجليزية، والهولندية، والإيرلندية، والإسبانية، والروسية، ... إلخ، فضلاً عن الموجودة في الدول الإسلامية، مثل: تركيا، وإيران، والهند، وباكستان، ... إلخ، وكلها مؤشرات على أن أمة المسلمين، لم تكن، قط، غريبة عن عالم الكتاب، وأن الكتاب كان عنوانها البارز.

34- انظر تفاصيل دقيقة حول الكتاب عند المسلمين، عند: الدكتور يحيى وهيب الجبوري، في كتابه "بيت الحكمة ودور العلم في الحضارة الإسلامية"، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2006م. خاصة في مقدمة الكتاب.

35- هنا، نضرب مثلاً بآبائنا النديم؛ وهو صاحب موسوعة "الفهرست"، وهي، كما نعلم، ذخيرة لا تقدر؛ حيث جمعت وأحصت كمّاً هائلاً من المصادر، ولولاه لضاع الكثير من التاريخ. وللذكر، فهو اشتغل ورّاقاً. انظر ابن النديم "الفهرست"، دار المعرفة، بيروت- لبنان، المقدمة، دون تاريخ.

36- لقد رويت العجائب عن اعتزاز العلماء بكتبهم وكثرتها وندرتها، من ذلك، ما قيل: إن الصاحب بن عباد؛ وزير عضد الدولة بن بويه، كانت له خزائنه، اشتملت على مائتين وستة آلاف مجلد، وأنه كان حين يسافر، تشدّ كتبه التي يحملها معه، لقراءتها أثناء سفره، على ثلاثين جملاً، وكان لشغف الصاحب بالكتب وحيازتها، يبعث رسله في مشارق البلاد ومغاربها، ليشتروا له نفائس الكتب، وكانت فهارس مكتبته، تتألف من أربع وأربعين كراسة. وما الصاحب بن عباد إلا واحداً من آلاف العلماء في شتى أنحاء الدولة الإسلامية.

انظر مزيداً من التفاصيل: عند الدكتور يحيى وهيب الجبوري، في المرجع المذكور سلفاً، وخاصة الصفحات 7- 8- 9

إن العرب، وبمجرد أن نقلوا تراث الأقدمين، انتقلوا وبسرعة مذهلة إلى طور الإبداع، فتفوقوا على أساتذتهم (اليونان)، وصححوا لهم كثيراً من الأخطاء، وأكملوا ما كان ناقصاً عندهم، وهو الأمر الذي سنعمل على توضيح ملامحه، فيما سيأتي من البحث؛ حيث سنكتشف كيف استطاع الفلكيون المسلمون، تدقيق وتصويب حسابات الفلكي العمدة (بطليموس الإسكندراني) ذي الثقافة الإغريقية، صاحب أشهر كتاب فلكي في القديم، والذي أسماه العرب، إجلالاً وتقديرًا، بـ (المجسطي)، ولم يبق علماء الفلك المسلمون بتدقيق أعمال بطليموس فقط؛ بل انتبهوا إلى عيوبه وأغلاطه النظرية، وأقروا عدم التزامه بمقدمات هيئته الفلكية، وهو ما يتضح مع العالم ابن الهيثم، في كتابه «الشكوك على بطليموس»، الأمر الذي دفع إلى محاولة إيجاد بدائل أحسن وأمثل للهيئات الفلكية، وهو الأمر الذي سنتطرق إليه في موضعه في هذا البحث.

وكي نبقى مع نفس النموذج من العلماء المسلمين، نذكر بالعمل الجبار الذي أنجزه ابن الهيثم في مجال البصريات، في كتابه «علم المناظر»؛ حيث استطاع قلب التصور الكلاسيكي رأساً على عقب، ففتح بذلك الباب لأعمال اللاحقين، أمثال: ديكارت وكبلر.

إن الحضارة الإسلامية غدت وريثة الفكر الشرقي واليوناني؛ بل هي القيمة على ذخائر الثقافة، والممثلة الوحيدة للحضارة الإنسانية في العصور الوسطى، وبالطبع، نؤكد على أن بواكر الانطلاق بدأت ذاتية مع نزول الوحي القرآني، والذي كان يحث على التأمل والتدبر والانطلاق في الأفق، ولكن الترجمة والاحتكاك بالآخر، زادا من يقظة وعي المسلم، وجودة فهمه، وجموح عقله، وتفتق قريحته.

أثر الترجمة في اللغة العربية:

لقد استطاعت اللغة العربية أن تستوعب العلوم (اليونانية، والإيرانية، والهندية) بسرعة هائلة، وبمجرد أن بدأت الترجمة، بدأت معها العربية تتخذ شكلاً مطوّراً، لتستجيب لما ندبت إليه؛ حيث اتسع صدرها للعديد من الكلمات والمعاني الاصطلاحية، والتراكيب الفنية، والألفاظ العلمية الأجنبية، إلى درجة أنها تحولت من لغة ضيقة ذات طابع قبلي، إلى لغة عالمية، وأصبحت لغة العرب؛ هي لغة الدين، والحكمة، والقانون، والسياسة، والإدارة، والتجارة، والكتابة، والتأليف. إذن، أصبحت العربية لغة الحضارة بامتياز؛ حيث اكتسحت اللغات المحلية آنذاك، واستطاعت أن تحد من أخواتها السامية، وكانت اللغة السريانية أولى ضحاياها.

وهنا، نذكر بشغف الأندلسيين بالعربية، إلى درجة نسيانهم اللاتينية؛ بل تسربت العربية إلى الكنائس، حتى اضطر أحد القساوسة من أهل إشبيلية إلى نقل الكتاب المقدس إلى العربية، ليقرأه تلاميذه. ولتوضيح الأمر أكثر، نستحضر تلك القصة التي يستشهد بها الباحثون، وهي: إن كاهن قرطبة (إل فارو) في أواسط القرن التاسع للميلاد، كان يستغيث ويجأ بالشكوى من أبناء دينه، الذين يطالعون أشعار العرب، ويستغرقون في دراسة كتابات الفقهاء، وعلماء الكلام المسلمين، وفلاسفتهم، لا لتفنيدها؛ بل لتعلم أسلوب عربي بليغ.

وهكذا نسي المسيحيون لغتهم، وحذقوا اللسان العربي، وأقبلوا على كتب العرب بنهم وشغف؛ بل كتبوا بها، ويتفوق عن العرب أنفسهم³⁷.

هذا يدل على المستوى الرفيع الذي بلغته العربية، وكيف أن جواز مرور العلمية لا يتم إلا بها؛ بل حتى العلماء المسلمون الكبار من جذور فارسية، كانوا يكتبون بالفارسية، لكن وقصد الذبوع والانتشار والحصول على القبول العلمي، كانوا يخصصون نسخة أخرى بالعربية، وهو ما قام به، مثلاً، الخواجة نصير الدين الطوسي في القرن الثالث عشر الميلادي، وما قام به، وفي وقت مبكر، المترجم المتميز والحذق، المسيحي النسطوري (حنين بن إسحاق): الذي كان ينقل، أحياناً، التراث اليوناني إلى السريانية في نسخة، وإلى العربية في نسخة أخرى، وذلك إبان القرن التاسع للميلاد، ولكن، وعلى الرغم من ذلك، احتضرت السريانية أمام قوة العربية، فلم تعد الكتب المنتشرة إلا بها.

بعد الاصطدام بالمختلف عن طريق الرغبة في اقتحام عوالمه بالترجمة، كانت العربية مطالبة بمواجهة الأمر بأفق رحب، يعمل على توسيع رداء اللغة، وعلى المزيد من الاشتقاق فيها، ونحت مصطلحات جديدة، وتكييف لبنيتها، كي تلبي حاجات الحضارة. وبالفعل، أصبحت تعبر وبسلاسة عن جميع ما تفرضه العلوم؛ من طب، ونبات، وفلك، وفلسفة، ومنطق، إلخ، وإذا ما أردنا معرفة ما تركته الترجمة من أثر على اللغة العربية، فلنقارن بين الأدب العباسي والأدب الجاهلي، لنكتشف ما حصل من تبدل؛ فالتلاقح الحضاري لا يبقي الأمور كما هي؛ بل يخصبها، ويجعلها تدخل في تركيبات جديدة، ويقحمها في مواضيع لم تكن معهودة³⁸، وطبعاً، لم يكن الثمن سهلاً؛ بل إن التطور في اللغة، أفقدها صفاءها ونقاءها الأول، يقول الجاحظ في هذا الصدد: «فباللغة إذا دخلت على أختها أفسدتها»³⁹.

إن العلوم والفلسفة، كانت تعتبر أعجمية، وهي دخيلة تم استيرادها واستجلابها من الحضارات القديمة، ومع إرادة تأسيسها من طرف السلطة، خاصة زمن الخلافة العباسية، وإقحامها في التربة الإسلامية، كان لزاماً أن يحدث تجديد في اللغة نفسها، كي تستوعب المعاني غير المألوفة، وهو ما حدث بالفعل؛ حيث اكتسبت العربية سلاسة وجزالة ومرونة، فأصبحت قادرة على أن تعبر عن: منطق أرسطو، وفلسفة أفلاطون، وطب أبقراط، وجالينوس، وفلك إبرخس وبطليموس، ورياضيات إقليدس، إلخ.

لقد مكن الاختلاط بالشعوب الأخرى، عن طريق الترجمة، من جعل العديد من الكلمات اليونانية والفارسية والقبطية والسريانية... إلخ، تتسرب إلى العربية، وتصبح جزءاً منها؛ حيث بقيت على حالها، مع

37- انظر: د. يحيى وهيب الجبوري، ص 15-16. مرجع سابق. وأيضاً، انظر: القصة نفسها عند الدكتور عبد الرحمن مرحبا، ص 234، مرجع سابق.

38- يقول عبد الرحمن مرحبا: "بعد أن كان الشاعر يستعمل في وصفه كثيراً من الكلمات الحسية والتعابير المادية، فلا يتكلم إلا عن الصحراء، والمرأة، والأطلال، والإبل، والنخيل. إذا بشعره، بعد حركة الترجمة، تختلط فيه دقائق علمية وفلسفية، لا عهد لشعراء العصر الجاهلي بها. وهكذا، حمل الشعر المعاني العلمية والفلسفية، وحلق في أجواء كانت محزومة عليه"، ص 238-239، مرجع سابق.

39- نقلاً عن عبد الرحمن مرحبا، ص 239

بعض التحوير، لكي تتناسب مع الوزن والجرس العربي. مثلاً: أخذ العرب عن اليونانية؛ كلمة (هيولي): بمعنى مادة، و(إسطقس): بمعنى عنصر. وعن السريانية؛ (المير): بمعنى الباب أو الفصل. وعن الفارسية؛ (الهندسة)... إلخ، لقد نفذت العديد من الكلمات الأجنبية، مثل: كيمياء، وموسيقى، وزنديق، وديباج، وإزميل، وإبريق. وتمّ الاشتقاق منها، وفق الأوزان العربية، فنجد: تفلسف، وتزندق، وتمنطق... إلخ. إن الترجمات الأولى، كانت في بداياتها رديئة وضعيفة، إلى درجة أن بعض الكلمات نقلت كما هي، وتم الاحتفاظ بأصلها الأجنبي، ولكن مع مزيد من النضج في عمليات الترجمة، تم تعويض بعض تلك الكلمات، رويداً رويداً، بألفاظ عربية خالصة، أكثر دلالة ورشاقة؛ حيث يستسيغها اللسان العربي، ولتوضيح الأمر، نضرب المثال التالي:

أناطيقا	التحليل
سوفسطيقا	المغالطة
قاطيغورياس	المقولات
أرطماطيقا	التعاليم (الرياضيات)
ياري أرمينياس	العبارة
طوبيقا	الجدل
ريطوريقا	الخطابة
بولاطيقا	السياسة

إذن، وكما نلاحظ في المثال أعلاه: إن المترجمين الأوائل، تركوا بعض الألفاظ كما هي في لغاتها الأجنبية، لكن سرعان ما ستتحول هذه الكلمات الأجنبية إلى ترجمات عربية، عندما اكتشف العرب أن العربية قادرة على أن تعبر عنها، ببسر وبدلالات أعمق.

وفي الحقيقة، يجب الإشارة إلى أن هذه الطفرة التي حصلت للعربية جراء الترجمة، لم تكن الأولى؛ بل هي الثانية، فمع ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم، وقع تغير دلالي هائل لبعض الكلمات، وتم ضخها بشحنات جديدة، لم تكن معهودة من قبل؛ فالصلاة، والزكاة، والجهاد، والإيمان، والكفر، والجنة، والنار،... إلخ، كلها أخذت معان تتلاءم مع الدين الجديد، وحتى النحاة استخدموا ألفاظاً كالرفع، والجر، والنصب، والضم، والمبتدأ، والخبر، والفاعل، والمفعول به، والإسناد،... إلخ. وتلك بالتأكيد لن يفهمها العربي في الجاهلية، بنفس المعنى؛ فالأفق اختلف، مما يلزم عنه تغيير في المعنى أيضاً⁴⁰.

وبعودتنا إلى الترجمة وتخصيها للعربية، سنجد: أن الكلمات قد تناسلت بطريقة متسارعة، فقل مثلاً: مادة وصورة، جوهر وعرض، ماهية وهوية، كم وكيف وأين، وموضوع ومحمول، وقضية وفصل، وحدّ

40- لا ينسى الدكتور عبد الرحمن مرحبا، تذكيرنا أن هذه التغيرات تحدث في اللغة على الدوام، جراء التلاقح مع الغير؛ فلغتنا العربية الحالية، حدث لها، أيضاً، طفرات وتغيرات ضخمة، جراء الاقتحام الأوروبي لثقافتنا. مثلاً: لم تعد السيارة لها فقط معنى القافلة، وهكذا يقال عن الدبابة، والمسدس، والذرة، والجرثومة، والعنصر، والهاتف، والصاروخ، والطائرة، والمكتب، والمحاسبة، وغيرها من الألفاظ التي تغلّت بطبقات جديدة من المعاني، لم يعهدها السابقون أبداً، فلن يفهم الجاحظ ولا ابن المقفع، مثلاً، ما المقصود منها. انظر: ص ص 240-241. مرجع سابق.

ورسم، وتصور وتصديق، ومقدمة ونتيجة، وقوة وفعل، وعلة ومعلول، وهيئة، وكواكب متحيرة، وأفلاك تدوير، وأزياج، ومعدل، ... إلخ. وهكذا من الألفاظ التي كثرت، سواء جراء نضج العلوم المسماة شرعية وحاجتها إلى الضبط والتدقيق، أو جراء الترجمة التي أغرقت العربية بمصطلحات وألفاظ جديدة، إلى درجة كان من الطبيعي أن تبدأ عملية وضع معاجم متخصصة، لضبط هذا السيل من الكلمات التي تحتاج إلى تفسير، وما كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي، والتعريفات للجرجاني، ومفاتيح العلوم للخوارزمي، إلا أمثلة عن ذلك. وإذا ما وقفنا عند هذا الكتاب الأخير، سيتبين لنا تأثير التلاحح بالحضارات الأخرى، على اللغة العربية، فلنلقي عليه نظرة.

ب- حول كتاب: «مفاتيح العلوم» للخوارزمي الكاتب⁴¹

يعد هذا الكتاب من أنفس المصادر في تاريخ العلوم عند العرب، وظهوره إلى الوجود كان جواباً عن العديد من الأسئلة العالقة في سؤال العلم عند العرب، خاصة فيما يتعلق بالمصطلح خلال القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، وذلك من حيث نحته أو استيراده من لغات أخرى، وإقحامه في بنية العربية بما يتلاءم. ناهيك عن أن الكتاب يقف عند مسألة التغير الدلالي، حسب الحقول العلمية؛ فنفس اللفظة تأخذ معان مختلفة، والمفاهيم وهي تسافر تعلق بها شحنات جديدة من الدلالات، وهذا ما سيضرب عليه الخوارزمي العديد من الأمثلة في مقدمة كتابه، وهذا يدل على نضج عال في تلك الحقبة من تاريخ البشرية، يثير الدهشة بحق، فيما يخص المنهج.

ب - أ: مفاتيح العلوم في الدراسات الاستشرافية

لم يحظ كتاب «مفاتيح العلوم» باهتمام لائق من الباحثين العرب، إلا في النادر، ولكنه في مقابل ذلك، وجد صدى وتفصيلاً في الدراسة من طرف المستشرقين، على نحو يثير الإعجاب. لقد قام الدكتور (عبد الأمير الأعسم) بدراسة جعلت مقدمة لكتاب مفاتيح العلوم، واستنتج الأمر التالي: وهو أنه شخصياً، كان له موقف صارم من الاستشراق الإيديولوجي، ولكن هذه المرة على العكس تماماً، خاصة مع هذا الكتاب؛ حيث تشكل في ذهنه تصورات إيجابية عن الاستشراق العلمي الذي أنجز الكثير في تاريخ العلوم عند العرب، وخلص إلى فكرة مفادها: ليس كل ما هو قادم من الاستشراق سيء أو مغرض.

لقد ظهر كتاب «مفاتيح العلوم» للخوارزمي الكاتب في نشرة المستشرق الألماني (فان فلوتن van vloten) سنة 1895م، أواخر القرن التاسع عشر، بنصه العربي ولأول مرة. وكان ذلك أمراً مدهشاً لدى المستشرقين؛ نظراً لطريقة بنائه، وطريقة تفصيلاته، وقد كان إعلماً بانفتاح البحث العلمي الجاد على دراسة المصطلحات التي ضمها الكتاب، خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

41- الخوارزمي الكاتب، «مفاتيح العلوم»، دراسة وتصدير: د. عبد الأمير الأعسم، دار المناهل، لبنان، ط1، 2008م.

ب- ب: وقفة مع مقدمة الكتاب: خطة المؤلف

تتميز مقدمة الكتاب بوضوح في الرؤية بطريقة تثير الإعجاب، ويمكن تقسيم المقدمة إلى ست محطات، حاول من خلالها الخوارزمي الكاتب توضيح عمله ومشروعه، وهي كالآتي:

ب- ج: دواعي الكتاب: لم الكتاب؟

يقول الخوارزمي: ”دعني نفسي إلى تصنيف كتاب، يكون جامعاً لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات، متضمناً كل وظيفة من العلماء المواضع والاصطلاحات، التي خلت منها، أو من جلها الكتب الحاصرة لعلم اللغة، حتى إن اللغوي البارز في الأدب، إذا تأمل كتاباً من الكتب التي صنف في أبواب العلوم والحكمة، ولم يكن شدا صدرًا من تلك الصناعة، لم يفهم شيئاً منه، وكأنه الأمي الأغتم عند نظره فيه“.

إذن، من قول الخوارزمي، يبدو أن الدواعي للكتابة كانت تزود الباحث بمفاتيح العلوم؛ أي جمع كل المواضع والاصطلاحات المسعفة، للغوي خاصة، فهو يقول: إن كتب علم اللغة، تخلو من هذه المواضع، حتى أن البارز من اللغويين، إذا نظر إلى كتب بعض التخصصات، كان كالأمي الأغتم الذي لا يفقه شيئاً. ومن ثم، قرار الخوارزمي تزويده بما يلزم لاختراق كل علم على حدة.

ب- د: الخوارزمي الكاتب والتغير الدلالي:

بعد حديثه عن دواعي الكتابة، قام الخوارزمي بعد ذلك بتقديم التفاتة رائعة حول التغير الدلالي من حقل إلى آخر؛ فاللفظة يكون لها معنى، لكن عندما تسافر إلى علم آخر، تكتسي دلالة جديدة، وتشحن بمعان أخرى.

ويضرب لذلك ثلاثة أمثلة:

لفظة الرجعة: سيحصر لها الخوارزمي خمسة تغيرات في الدلالة:

أ. عند أصحاب اللغة: المرة الواحدة من الرجوع، ويقول: وهم، لا يكادون يعرفون غيرها.

ب. عند الفقهاء: الرجوع في الطلاق، والذي ليس ببائن.

ج. عند المتكلمين: ما يزعمه بعض الشيعة من رجوع الإمام بعد موته أو غيبته.

د. عند الكتاب: حساب يرفعه المعطي في العسكر لطمع واحد ”الأجير“.

هـ. عند أهل الفلك: سير الكواكب من الخمسة المتحيرة على خلاف نضد البروج.

لفظة الفك: حصر لها أربعة تغيرات:

أ. عند أصحاب اللغة والفقهاء: فك الأسير، أو الرهن، أو الرقبة، أو أحد الفكين (الللحيان).

ب. عند أصحاب العروض: إخراج جنس من الشعر من جنس آخر تجمعهما دائرة.

ج. عند الكتاب: أي كتاب الدواوين: الفك: هو تصحيح اسم المرتزق في الجريدة السوداء، بعد أن كان وضع عنها.

لفظة الود: حصر لها ثلاثة تغيرات:

أ. عند اللغويين والمفسرين: أحد أوتاد البيت أو الجبل، من قوله تعالى: (وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا)

ب. عند أصحاب العروض: ثلاثة أحرف؛ اثنان متحركان وثالث ساكن.

ج. عند المنجمين: الود؛ هو أحد المنازل الأربعة في منطقة البروج، وهي الطالع الغار.

يبدو بوضوح أن اللغة العربية أصبحت ألفاظها تحتوي على طبقات متعددة من المعاني، مما كان يجعل التواصل صعباً بين الناس، فهم يتحدثون نفس اللغة، ولكن بدلالات مختلفة جداً للتضارب. ومن ثم، كانت ضرورة المعاجم المتخصصة، لكي يتمكن الباحث من الحصول على مفاتيح تسمح له باقتحام العلوم. وهذا ما فعله الخوارزمي الكاتب، بجمعه للمصطلحات الرائجة آنذاك في كل صنوف المعارف، سواء في العلوم الشرعية، أو ما سماه (علوم العجم).

ثالثاً: مراحل نقل تراث الأولين بعد الإسلام: الطريق إلى بيت الحكمة

إلا أن هذه الفورة الفكرية الهائلة التي كان محركها الأساس؛ هو القرآن الكريم، ستزداد شغلة وتوهجاً، عندما سيلتقي المسلمون، وبشكل مباشر، بحضارات سابقة وعريقة، وكان لها باع طويل في العلوم البحتة؛ أي ما سيسميه المسلمون، آنذاك، بعلوم الأوائل، أو علوم العجم، أو العلوم الدخيلة. فسيحدث تلاقح ما بين الأفكار جد نادر، سينجب لنا تلك الحضارة الإسلامية الشامخة في القرون الوسطى. فكيف تم هذا اللقاء؟ وماهي بدايات نقل تراث الأقدمين؟ وما الأسباب والدواعي إلى ذلك؟ وهل الأمر ترف أم حاجة؟ هذا ما سنحكي بعضاً من قصته الآن:

أ- الترجمة الشفوية:

لا شك أن العرب قبل الإسلام، قد تعلموا من المعارف المتداولة في الحضارات المجاورة والمتفوقة، بحكم الاحتكاك التجاري، والرحلات التي كان يقوم بها البعض، وهنا، نستحضر ذلك المثال الذي يقدمه الباحثون، الخاص بالطبيب العربي (الحارث بن كلدة تدقيق): الذي درس في جنديسابور الطب باللغة السريانية، في فضاء ثقافي فارسي، وعندما عاد إلى موطنه (المدينة المنورة)، كان مزوداً بمعرفة اللغتين السريانية والفهلوية؛ أي الفارسية، ومارس الطب تحت ظل حكم الخلفاء الراشدين، وكان متمكناً لخبرة الأقدمين في الطب بلغة تخالف لغته الأصل، ولكن يطبق في وسط عربي⁴². وهذا يدل على أن التلاحح، المعرفي والحضاري، كان يتم بين الشعوب قبل أن تصبح الترجمة كوعي وفعل مقصود.

إن زمن ظهور الإسلام، كانت فيه الترجمة قائمة من اليونانية والسنسكريتية إلى الفارسية، ومن اليونانية إلى السريانية؛ فالتقاليد العلمية، لم تتوقف أبداً، وإن كان يأتي عليها حيناً من الوقت، تتحرك ببطء لكن هي مستمرة، لقد كان الأطباء الذين اشتغلوا في مارستان جنديسابور مسيحيي الديانة، ونساطرة في المذهب، وسوريي اللسان، ويشغلون في جغرافية تسودها الثقافة الفارسية (الفهلوية). وبحكم أن العرب كانوا بجوار هذا التلاحح الفارسي السرياني، فأكد أن بعضهم كان على دراية بهذه اللغات، وبما يجري من أفكار ونقاشات⁴³؛ بل من المؤكد أن الخبرات ستسرب إلى الثقافة العربية، وإن لم تكن الترجمة واعية؛ فهي تتم بتلقائية وعفوية، وبشكل شفوي نظراً للحاجة.

وإذا كان من المعروف أنه ومنذ حكم الخليفة (عمر بن الخطاب)، اشتغل العديد من الخبراء والأطباء والفرس والسريان والأقباط والبيزنطيين في قطاعات مهمة من دواليب الدولة الإسلامية، فهم، بالطبع، كانوا يفكرون بلغتهم، ولكن لدواعي التواصل كانوا مضطرين للترجمة، ولو شفويًا⁴⁴.

ب- الترجمة في العصر الأموي:

يقول ابن النديم في الفهرست: "وعندما خطر ببال خالد الصنعة، أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان، ممن كان ينزل في مدينة مصر، وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة"⁴⁵.

42- البعزاتي، "الفكر العلمي والثقافة الإسلامية"، ص 118، مرجع سابق.

43- البعزاتي، ص ص 118-119

44- البعزاتي، ص 119

45- ابن النديم، الجزء السابع، ضمن مقالة الفلاسفة، ص 338

يحدّد ابن النديم من خلال نصه، أن أول نقل إلى العربية قد تم في العصر الأموي، بإيعاز من شخصية لامعة ومرموقة، هو: خالد بن يزيد بن معاوية، الذي كان شديد الاهتمام بالكتب والعلم والعلماء، إلى درجة أنه كان ينعت بحكيم آل مروان⁴⁶. وإن كان الجزم بأنه أول نقل أمرًا يصعب القبول به؛ لأن النقل الشفوي قد سبق النقل المكتوب، يروى عن خالد أنه قال بتواضع شديد: "ما أنا من العلماء ولا من الجهال، ولم أصنع سوى أن جمعت الكتب"⁴⁷.

كما يصفه صاعد الأندلسي بأنه كان: "بصيرًا بالطب والكيمياء، وله في الكيمياء رسائل وأشعار بارعة، دالة على معرفته وبراعته فيها"⁴⁸. وإن كان ابن خلدون يشكك في مكانة خالد بن يزيد المعرفية، ودرأيته بالعلوم والصنائع، بذريعة أن جيله كان إلى البداوة أقرب⁴⁹، وهذه حجة ليست قوية؛ لأن خالد، وإن لم يكن عالمًا في الكيمياء، فقد كان مهتمًا وهاويًا، وهذا يكفي لجعله يطلب نصوص الأقدمين قصد الترجمة.

يؤكد ابن النديم على اهتمام خالد بالكيمياء، واستعان بمجموعة من ترجمة العلوم، ومن هؤلاء (اصطفان القديم) الذي نقل له بعضًا من كتب الصنعة⁵⁰. يقال: (إن خالد بن يزيد، قد حرم من الحكم، وخذل عن الخلافة، فعوّض ذلك بالتجوال في البلدان، والمغامرة، بحثًا عن المعرفة والحكمة، والغريب من الأمور، مثل: الصنعة "الخيمياء"؛ حيث كان لديه شغف بتلك الفكرة التي سيطرت على العقول، وهي إمكانية تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة⁵¹. وقد قيل، أيضًا: إنه درس الكيمياء على يد راهب إسكندراني، اسمه ماريانوس الرومي، والذي استقدمه من الإسكندرية لهذا الغرض⁵².

إذن، الترجمة في العصر الأموي بدأت ضيقة المدى، وذات أبعاد فضولية، وبمبادرات فردية، فهناك من كان يريد الاطلاع على خبرات الحضارات السابقة، قصد إشباع رغبة في الاطلاع، أو تلبية لحاجة عملية، ولنقل إن الترجمة كانت أشبه بالهواية أكثر مما هي مشروع عام.

لكن بمجرد وصول عبد الملك بن مروان إلى الحكم، سيظهر أمر جديد، يعطي للترجمة دفعة إلى الأمام، وبطابع مختلف، ويتجلى الأمر في قراره السيادي بتعريب الديوان، ونقله من (الفارسية والسريانية) اللتين كانتا لغتين طاغيتين على الإدارة الإسلامية آنذاك. يقول ابن النديم: "فأما الديوان بالشام، فكان بالرومية،

46- ابن النديم، ص 338. إذ يقول: «كان خالد بن يزيد بن معاوية، يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه، وله همة ومحبة للعلوم».

47- انظر: الجبوري، مرجع سابق، ص 29

48- طبقات الامم، صاعد الأندلسي، ص 99. نقلاً عن الجبوري، مرجع سابق، ص 29

49- انظر: الجبوري، المرجع أعلاه، ص 29

50- ابن النديم، ص 340. ضمن أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربي.

51- سالم يفوت، "حركة الترجمة في عصر النهضة الأول: بيت الحكمة"، ضمن سلسلة ندوات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط1، 2008م، ص 67

52- الدكتور عبد الرحمن مرحبا، ص 208

وكان يكتب عليه (سرجون بن منصور) لمعاوية بن أبي سفيان، ثم منصور بن سرجون. ونقل الديوان في زمن هشام بن عبد الملك، نقله أبو ثابت سليمان بن سعد مولى حسين، وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك. وقد قيل: إن الديوان نقل في أيام عبد الملك؛ إذ أمر سرجون ببعض الأمر، فتراخى فيه، فأحفظ عبد الملك، فاستشار سليمان فقال له: "أنا أنقل الديوان وأرتجل فيه"⁵³.

من المعروف أنه في العهد الأموي، بلغ التنظيم الإداري مستوى جد متخصص، وكان جل موظفي الدولة من الفرس، والسريان، والبنطيين، والأقباط؛ إذ لم يكتسب العرب خبرة في الشؤون المالية، والكتابة، والضرائب، والجند، والبريد، إلا في نهاية القرن الهجري الأول، وبتدريج بطيء⁵⁴. وخلق في الدولة الإسلامية تنافس شرس حول المناصب بين الناشئة، وهو ما حرك الخبرات، والكفاءات، وبذل الجهد لامتلاك المزيد من المعرفة والخبرة في التدبير، للتحكم في مواقع النفوذ والخطوة.

وبحديثنا عن النقل من تراث الأقدمين، لا يجب أن ننسى ذكر الخليفة عمر بن عبد العزيز المتوفى (سنة 101هـ/717م)، الذي طلب من الطبيب اليهودي، الفارسي الأصل، ماسرجويه، نقل كُنَاشَة في الطب، كان قد وضعها في اليونانية القس أهرون الإسكندري، ناهيك عن أن عمر بن عبد العزيز، كان قد وسع المجمع الطبي في أنطاكية، بأن استقدم إليه الأطباء من مدينة الإسكندرية، وأمرهم بنقل بعض المؤلفات الطبية إلى اللغة العربية⁵⁵.

إن الدولة الإسلامية الناشئة، لم تكن قادرة على الذهاب بعيداً في شؤون المعمار، وبناء الحصون والمخازن، وشق الطرق، وتقنيات الري، والزراعة، والمحاسبة، وغيرها، دون سند خبرات شعوب الحضارات السابقة، فالتلاحح كان ضرورة سياسية وحضارية آنذاك؛ فالعلم، والحكمة، والطب، ونظم التسيير، والإدارة، والعبارة المكتوبة، كانت أغنى عند غير العرب⁵⁶. يقول ابن خلدون في هذا الصدد: "فلذلك، عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها، تفتقر في أمر البناء إلى غير قطرها، كما وقع للوليد بن عبد الملك، حين أجمع على بناء مسجد المدينة، والقدس، ومسجده بالشام، فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء، فبعث إليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد"⁵⁷؛ بل يمكن القول: إن هذا التمازج الحضاري، قد تم حتى قبل الأمويين؛ حيث إن مدينة البصرة والكوفة، تم بناؤهما خلال حكم عمر بن الخطاب، في الفترة بين (13 و23هـ/634 و644م) بعون من خبرة الحضارات السابقة، وهما مدينتان غير بعيدتين عن جنديسابور الساسانية، وإذا كان أصلهما مستقراً للجيش الإسلامي زمن الغزوات، فإنهما

53- ابن النديم.

54- انظر تفاصيل ذلك: عند البعزاتي، في الفصل الأول، وهو بعنوان "وظائف الدولة الجديدة"، ص 15

55- عبد الرحمن، ص 208

56- البعزاتي، ص 19

57- ابن خلدون في مقدمته، تحقيق عبد السلام الشداوي، دار الجيل، الدار البيضاء، ج 3، ص 298. نقلاً عن العزاتي في كتابه "الفكر العلمي..."، ص 19. مرجع سابق.

سرعان ما تحولتا إلى مركزين حضريين، تتجمع فيهما المعارف، وتنتشر فيهما اللغات، والمعتقدات الدينيّة، والتيارات المذهبية، وتحل بهما أجناس عديدة، مما عجل بالانصهار الحضاري. وأكد أن الأمر سيؤدي إلى الترجمة لقوة الذوبان الثقافي آنذاك ولو شفويًا؛ لأن كل ثقافة ستسعى للتعرف على الأخرى ضرورة.

وبالعودة إلى العصر الأموي، وبالضبط إلى قضية تعريب الديوان، وتأثيرها على نقل معارف الأقدمين، ينبغي الوقوف عند وظيفة خطيرة، وهي وظيفة الكتابة، والتي ألقت حولها كتب كثيرة في الإسلام، ورسائل فيها وصفات لكيفية أن تكون كاتبًا ناجحًا، وخاصة في القرن الثالث والرابع للهجرة. وهنا، نذكر كتاب "أدب الكاتب" لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المتوفى سنة 276هـ/889م.

فلنلقي نظرة حول هذه الوظيفة؛ لأنها ستسمح بفهم بعض المسالك التي مكنت من استيعاب خبرات الحضارات السابقة استعدادًا لتجاوزها.

ج - وظيفة الكاتب:

إن وظيفة الكاتب خطيرة؛ لأنه يساهم في تثبيت السلطة أو زعزعتها؛ إذ تكون بحوزته أسرار الدولة المالية، والاقتصاديّة، والدبلوماسية، وقد يخلق انطلاقًا منها متاعب للحاكم، إما عن جهل أو عن كيد، كما يمكن أن يساعد في حل الصراعات، ويكشف له عن الدسائس التي تحاك له في خلعة منه. أو يقوم بدور عكسي، فيزج به في المهالك؛ فبالكتابة يدوم الحكم أو يتوقف، ويستقر المجتمع أو يتأزم⁵⁸، هذا من جهة. ومن جهة أخرى؛ هي وظيفة تحتاج، من الناحية الإدارية، إلى خبرة في التسيير، تتمثل في معرفة كافية بالحساب والتقويم السنوي، ودراية بالمساحات، وتقنيات المراسلة بالبلاغة اللازمة، واطلاع واسع على اللغات وأسابيلها، وقدرة على تحرير العقود. ولمزيد من فهم الكفاءات التي يحتاجها الكاتب، نترك ابن قتيبة يقولها، كما وردت عنده في كتابه المشهور "أدب الكاتب": "عليه أن ينظر الأشكال لمساحة الأرضين؛ حتى يعرف المثلث القائم الزاوية، والمثلث الحاد، والمثلث المنفرج، ومساقط الأحجار، والمربعات المختلفة، والقسي والمدورات، والعمودين، ويمتحن معرفته بالعمل في الأرضين، لا في الدفاتر، فإن المخبر ليس كالمعاين. وكانت العجم تقول: "من لم يكن عالمًا بإجراء المياه، ومجاري الأيام في الزيادة والنقصان، ودوران الشمس، ومطالع النجوم، وحال القمر في استهلاله وأفعاله، ووزن الموازين، وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا، ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه، وحال أدوات الصنائع ودقائق الحساب، كان ناقصًا في حال كتابته، ولا بدّ له من النظر في جمل الفقه، ومعرفة أصوله..."⁵⁹، كما يفصل بن قتيبة في ما يحتاجه الكاتب من الناحية الأسلوبية والبلاغية، قصد التأثير في مستقبل الرسائل والخطب.

58- البعزاتي، ص 25

59- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، "أدب الكاتب"، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981م، ص ص 12-14. نقلًا عن البعزاتي، من كتابه "الفكر العلمي والثقافة الإسلامية"، دار الأمان، طبعة 2015م، ص ص 22-23

حقيقة، نقول: (إن أدب الكاتب قد تشكل بقوة ووضوح في العصر العباسي، لكن هذا لا يمنع أن تكون بداياته في العصر الأموي، مادامت الدواوين قد تشكلت بها، فمن المؤكد، أننا سنجد الإرهاصات الأولى نحو تكوين كاتب بكفاءة عالية مطلوبة، خاصة عندما انطلق تعريب الإدارة، وبما أن الكاتب عليه أن يحصل على رصيد علمي يؤهله لعمله، فهذا سيجعل الحاجة ملحةً إلى بعض العلوم الدقيقة، مما يعني؛ ضرورة الترجمة، واستجلاب المعارف من الثقافات التي كانت سبابةً إلى ذلك، وبهذه الطريقة، استوعبت اللغة العربية المصطلحات التقنية بالتدرج، إلى أن احتلت مكان اللغات الأخرى.

د- العصر الذهبي للترجمة في العصر العباسي:

عندما سيصل بنو العباس إلى الخلافة، فإن مسألة الترجمة ستأخذ مساراً مختلفاً تماماً؛ إذ ستزداد الحاجة إليها، لتصبح توجهاً حضارياً واضحاً، وبخيار من الدولة، وليس فقط لأغراض عملية تقنية؛ بل لأغراض إيديولوجية أيضاً، وهو ما سنعمل على إبرازه.

د- أ- زمن المنصور:

يقول صاعد الأندلسي: "كان المنصور، مع براعته في الفقه، كلفاً بعلم الفلسفة، وخاصة علم النجوم"⁶⁰، فقد كان معروفاً عن أبي جعفر المنصور ولعه الشديد بالعلوم، وخاصة علم النجوم، وقد كلف المترجمين أن ينقلوا له كتباً في الطب والفلسفة والفلك. وهنا، نذكر تلك القصة التي تحكى عنه عند الباحثين، وهي: "كان يوماً موعوداً، فتكلف بعلاجه الطبيب جرجس بن جبرائيل، الذي حضر إلى بغداد من جنديسابور سنة (148هـ/765م)، وشفي على يده، فطلب المنصور منه أن يترجم له كتباً طبية، ففعل؛ حيث نقل له كتباً من اليونانية"⁶¹، وهو ما فعله أيضاً مترجم آخر اسمه (ابن البطريق)؛ حيث عمل على ترجمة بعض كتب الأقدمين. وأيضاً، نجد نقلة آخرين؛ كيعقوب بن طارق، ومحمد بن إبراهيم الفزاري، وغيرهم. ولشدة ميل المنصور إلى كتب العجم، كما كانت تسمى، فقد راسل ملك الروم طالباً منه أن يبعث له كتب العلوم قصد ترجمتها. وعموماً، في عهد هذا الخليفة، كان النقل يتم من كل اللغات الأساسية آنذاك؛ الفارسية (الفهلوية)، واليونانية، والسريانية. ومن الكتب التي ترجمت نجد: كليلة ودمنة، وكتاب السند هند في الفلك، وكتب أرسطو في المنطقيات، والمجسطي لبطليموس، والأصول لإقليدس، وغيرها⁶². وقبل الختم مع المنصور ودوره في الترجمة، ينبغي التلميح إلى أن عنايته لم تكن موجهة نحو علوم الأوائل فقط؛ بل اهتم أيضاً بالعلوم

60- صاعد الأندلسي، ص 99. نقلاً عن الجبوري، ص 33، مرجع سابق.

61- الجبوري، ص 33

62- نفس المرجع، ص 33

العربية؛ من فقه، وحديث، ورواية الأخبار، والتاريخ، فأمر محمد بن إسحاق، (المتوفى سنة 151هـ/768م): أن يؤلف له كتاباً في التاريخ لابنه المهدي، منذ آدم حتى زمنه هو⁶³.

د- ب- زمن هارون الرشيد:

ورث هارون الرشيد مكتبة المنصور، وعمل على إثرائها بمزيد من الكتب، وجلب إلى بيت الحكمة كل ما وجده في أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سبأها المسلمون، وقد كان الرشيد يشترط على المدن المغلوبة، شروطاً أهمها: أن يأخذ الكتب التي يريدها، ولم يكن الرومان يبدون معارضتهم لهذه الشروط، فتمكن الرشيد من الحصول على ذخائر وكنوز من كتب الأقدمين. وقد أمر بترجمة هذه الكتب التي غنمها من الروم، وكلف بذلك، المسيحي السرياني (يوحنا بن ماسويه) الذي كان شيخ المترجمين في عصره؛ حيث وضعه الرشيد أميناً على الترجمة في بيت الحكمة. وفي هذه الآونة، أخذ بيت الحكمة يتخذ صبغة المؤسسة؛ حيث أصبح لبيت الحكمة مكانة خاصة، أصبح مزوداً بمراسد فلكية، وخزانة كتب، ورتب لها كتاباً حذاً، ومترجمين، ونسأخاً مهرة. وهنا، نذكر الناسخ المشهور (الشاعر علان الشعوبي): الذي كان يكتب للرشيد والبرامكة. ولا يفوتنا، أن نذكر، هنا، أحد النقلة البارزين، وهو (الحجاج بن يوسف بن مطر): الذي ترجم أصول الهندسة لإقليدس مرتين؛ الأولى: زمن هارون الرشيد، ومعروف بالنقل الهاروني. والثانية: زمن المأمون، ومعروف بالنقل المأموني. كما أنه تم تعيين (بن نوبخت) العالم الفارسي الأصل، كمشرف عام على إدارة بيت الحكمة، وهو أيضاً، كان ينقل العلم من الفارسية إلى العربية.

لقد كان الرشيد يشارك العلماء محاوراتهم، ويغدق عليهم الهبات والعطايا، مما جعل بيت الحكمة يعرف في زمنه ازدهاراً وزخماً في الاشتغال، وزيادة مطردة في كمّ وكيف الكتب المترجمة⁶⁴.

د- ج- زمن المأمون:

نصل الآن إلى أهم مرحلة في الترجمة إلى العربية؛ إذ لا يذكر بيت الحكمة البغدادي إلا ومعه الخليفة المأمون، ومعه ستصل عملية النقل إلى أوجها، فهو سيكمل المشروع الذي بدأه المنصور والرشيد، وسيراسل، أيضاً، إمبراطور الروم ليرسل له كتب أفلاطون، وأرسطو، وأبقراط، وجالينوس، وإقليدس، وبطليموس، وغيرهم. كما عمل المأمون على إرسال بعثات خاصة، بحثاً عن الكتب النادرة، ومن هؤلاء نذكر: حنين بن إسحاق: الذي كان يجيد اليونانية والسريانية، وهو المترجم الفذ، الذي سنتحدث عنه بعد قليل. يمكن إجمالاً، تحديد منجز المأمون في الترجمة، بما قاله عنه القاضي صاعد الأندلسي في (ص38): "تمّ ما بدأ به جده المنصور، فأقبل على طلب العلم من مواضعه، واستخرجه من معادنه، بفضل همته الشريفة، وقوة نفسه

63 نفس المرجع، ص 37

64- الجبوري، ص ص 35- 36

الفاضلة، فداخل ملوك الروم، وأتحفهم بالهدايا الخطيرة، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون، وأرسطوطاليس، وأبقراط، وجالينوس، وإقليدس، وبطليموس، وغيرهم من الفلاسفة، واستنجد لهم مهرة الترجمة، وكلفهم أحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حضّ الناس على قراءتها، ورغبهم في تعلّمها، فنفتت سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحكمة في عصره، وتنافس أولو النباهة في العلوم، لما كانوا يرون من إعطائه لمنتحليها واختصاصه لمتقليديها، فكان يخلو بهم، ويأنس بمناظرتهم، ويلتذذ بذاكرتهم، فينالون عنده المنازل الرفيعة، والمراتب السنية⁶⁵.

أما فيما يخص نقل علم الفلك إلى التربة الإسلامية، وهو الذي يعنينا في الأساس في بحثنا هذا، يقول صاعد الأندلسي عنه، الآتي: ”ولما أفضت الخلافة إلى المأمون، وطمحت نفسه الفاضلة إلى إدراك الحكمة، وسمت به همته الشريفة إلى الإشراف على علوم الفلسفة، ووقف علماء وقته على كتاب (المجسطي) وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه. جمع المأمون علماء عصره من أقطار مملكته، وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الأدوات، وأن يقيسوا بها الكواكب، ويتعرفوا بها أحوالها، كما صنعه بطليموس ومن كان قبله، ففعلوا ذلك، وتولوا الرصد في مدينة الشماسية في دمشق من أرض الشام سنة 214هـ، فوقفوا على سنة الشمس الرصدية، ومقدار ميلها، وخروج مركزها، ووضع أوجها، وعرفوا، مع ذلك، بعض أحوال باقي الكواكب من السيارة والثابتة، ثم قطع بهم عن استيفاء غرضهم موت الخليفة المأمون سنة 218هـ، ففقدوا ما انتهوا إليه، وسموه (الجوهري) وألف كل واحد منهم في ذلك زيجاً منسوباً إليه موجوداً إلى اليوم (يقصد زمن المؤلف المتوفى سنة 462هـ)، فكانت أرسادهم أول أرساد في مملكة الإسلام“⁶⁶.

نستنتج من كلام صاعد الأندلسي؛ كمية الاشتغال الذي تم في عهده، قصد الدفع ببيت الحكمة إلى أبعد مدى، إلى درجة أن أصبح مجمّعاً علمياً، وتوسعت مهامه وكثر رواده، ونشطت أعماله، فضمّ خزانة كتب زاخرة، ومحرّكاً للرصد الفلكي، ومجلساً للمناظرات والمجادلات العلميّة؛ بل حتى الكلامية. وهنا، نذكر قضية خلق القرآن الكريم، والأزمة التي خلقتها في التفكير الإسلامي آنذاك، ناهيك عن أنه كان يقيم فيه فريق من الأطباء والمنجمين، إقامة دائمة ليكونوا بقرب الخليفة، ويجيبوه عن تساؤلاته في التنبؤ، وما تقول به النجوم⁶⁷. ويكونوا تحت إمرته في الوقت المطلوب، كل هذا الأمر، يعني؛ أن بيت الحكمة صار في زمن المأمون، أكاديمية ومؤسسة علمية كاملة الأركان، فلديه الدعم المالي، والتسيير الإداري، ورؤية للعمل. وإذا ما وقفنا عند الدعم المالي، نقول: لقد كانت هناك مصاريف واضحة للترجمة والتأليف والرصد الفلكي، كما أن العديد من العلماء كانوا يقيمون في بيت الحكمة، وتخصص لهم أماكن للعمل والراحة والنوم، وكل ما يحتاجه العالم من طعام، وشراب، ورواتب. وهنا، نذكر أن المأمون، كان يدفع لكل كتاب تمت ترجمته، ذهباً بوزن

65- صاعد الأندلسي، ص 47

66- صاعد الأندلسي، ص 67

67- الجبوري، ص 48

الكتاب. إضافة لكل هذا، كان يشتغل بيت الحكمة، النساخ والمجلدون، مما يعني نفقات أخرى، تزداد ثقلًا، إذا علمنا أن الأمر يحتاج بعض أدوات الاشتغال؛ كالورق، والحبر، ومواد صناعة الآلات، وإلى غير ذلك⁶⁸.

وقبل أن ننتقل إلى البحث في الدواعي الحقيقية التي دفعت المسلمين إلى حمى الترجمة، سنقف عند المترجمين أنفسهم، ونركز على أشهرهم على الإطلاق، وهو: حنين بن إسحاق.

• المترجمون:

لقد ظهر خلال سنوات بيت الحكمة مترجمون لامعون، سنذكر بعضًا منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري، (ت 161هـ/777م): هو مترجم "السند هند" في زمن المنصور. وجرجيس بن جبريل، وبختيشوع بن جرجس (ت 171هـ/787م): الذي كان صاحب بيت الحكمة، وواحد من المسؤولين عنه في زمن المأمون. ويحيى بن البطريق (ت 200هـ/815م)، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي (ت 220هـ/835م)، ويوحنا بن ماسويه: هو رئيس بيت الحكمة (ت 243هـ/857م)، والحجاج بن يوسف بن مطر الكوفي (ت 220هـ/835م)، والفضل بن سهل بن نوبخت، والحسن بن سهل بن نوبخت، وحنين بن إسحاق (رئيس بيت الحكمة)، وقسطا بن لوقا، وآخرون كثير. وسنأخذ مثالًا ينوب عن الكل؛ وهو حنين بن إسحاق.

• حنين بن إسحاق:

هو أحد كبار المترجمين في التاريخ العربي، واعتبره المؤرخون القدامى أحد أئمة الترجمة في الإسلام؛ عربي، ودينه مسيحي، ومذهبه نسطوري، وقد نشأ بلغتين منذ صباه، وهما؛ العربية: لغته الأم. والسريانية: التي تعلمها، وهي لغة الطقوس الدينية في مدارس المذهب النسطوري، لا سيما وقد عمل شماسًا في إحدى الكنائس، وكان يتقن أيضًا اليونانية. لقد انضم إلى فريق بيت الحكمة، وكان من أكبر المترجمين، وعندما يسمع الآن اسم حنين بن إسحاق، يروج له المؤرخون صلته بالطب، والنصوص اليونانية، والدقة في النقل⁶⁹. كما يوجه له الكل المديح والألقاب التشريفية، بوصفه عبقرًا في الترجمة، وأنه من أبرز الشخصيات العلمية في القرن التاسع الميلادي، ولقد خصص له الألمان دراسات مستقلة، ونفصوا الغبار عن نصوص كانت ضائعة في أصلها العربي، ككتاب "العشر مقالات في العين" الذي نبه إلى وجوده في نصوص لاتينية، العالم (هيرشبيرج، ت 1925م)، وعثر عليه العالم (ماير هوف، ت 1945م) في مصر فحققه وأصدره، كما عثر (بيرجستراسر، ت 1933م) في اسطنبول تركيا، على رسالة جد مهمة، كتبها حنين بن إسحاق إلى صديقه علي بن يحيى المنجم، أحد أكبر موظفي البلاط زمن المتوكل؛ حيث كان رفيقه، وكان يكلف المترجمين بالترجمة، بمن فيهم حنين بن إسحاق. هذه الرسالة التي تم العثور عليها جد مهمة؛ لأنها غنية بالمعلومات،

68- انظر تفاصيل ذلك: عند الجبوري، ص 49

69- انظر الدراسة الجيدة التي أنجزها الدكتور أحمد السري، وهي بعنوان: "حنين بن إسحاق في كتابات ألمانية"، وهي مداخله ضمن كتاب تاريخ العلوم في الإسلام، الرابطة المحمدية للعلماء، المجلد الأول، ط1، 2014م، ص 119

وتوثق لكل ما ترجم عن الطبيب السكندري جالينوس إلى حدود حنين بن إسحاق، كما أنها تعطي نبذة عن روح العصر العلمي في الإسلام.

إن الباحثين يجمعون على قوة الرجل في الترجمة، وإبداعه فيها، فطبعه الطاعي على ترجمته هو سلوك سبيل الترجمة بالمعنى، كما كان حريصاً على مواءمة الترجمة للمعتقد الإسلامي، ويبعد عنها أي أفكار شركية، فإذا ما وجد فكرة لا تناسب التوحيد، كان يموه ويحور المعنى بطريقة ذكية؛ حيث لا يتأثر المضمون الإجمالي، بعبارة واحدة، نقول: (إن حنين كان يكيف ما يصادفه وثنيًا، بما يتلاءم مع المحيط الإسلامي الذي يعيش فيه)⁷⁰.

لقد كان حنين يترجم تارة إلى السريانية، وتارة أخرى إلى العربية، حسب سوق الترجمة؛ أي الطلب والعرض، وكانت طريقة اشتغاله فريدة؛ إذ أجمع الباحثون على أنه كان فقيهاً لغوياً (فيلولوجياً)، يجمع المخطوطات التي يود ترجمتها أولاً، ثم يقارن بينها، ليعمل على الأفضل منها، ويعمل على معاودة الترجمة إذا وجد مخطوطة أفضل، ولو بعد سنوات. كما كان بدايةً يقرأ النص الأصلي، ويستوعبه كاملاً، ثم يدخل عليه تعديلاً بما يتناسب مع اللسان العربي، فيغير في الصياغة، ويضيف ضمائر؛ لغرض الفهم، إن بدا له ذلك ضرورياً، وكان حقاً يشتغل، حقاً، بحسّ علمي عالٍ جداً، فطور تقنيات في الترجمة، باستقلال أهله لمديح علمي مستحق⁷¹.

ونظراً لكفاءة حنين بن إسحاق، أوكله المأمون مهمة مراقبة عملية الترجمات ومراجعتها، وهياً له كل الأسباب التي تيسر عمله. لقد كانت الترجمة قبل حنين تتم من اليونانية إلى السريانية، ثم من السريانية إلى العربية، لكن بمجرد أن تولى حنين زمام الترجمة، جعل النقل يتم من اليونانية إلى العربية مباشرة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ كانت طريقة المترجمين، قبل حنين بن إسحاق، تقوم على البحث عن مقابل الكلمات من اللغة الأصل إلى العربية، وهي طريقة كانت تعطي نصوصاً مشوهة أحياناً، وريئة، ولا تقترب من المعنى المقصود في الأصل. ولما تولى حنين أمر الترجمة، جعل النقل حسب المعاني، دون أن يتقيد بمواقع الكلمات، هذا الأمر جعله ينال رضى وإعجاب المأمون، فأغدق عليه الهبات، وكان يعطيه وزن ما يترجم ذهباً. وهنا، لا بأس من أن نسرد حكاية طريفة، وردت عند ابن أبي أصيبعة، تبرز "تحايل" حنين بن إسحاق؛ حيث كان يعمد طمعاً في المزيد من الذهب، إلى كتابة ما يترجم على ورق غليظ وثقيل الوزن، ويكتب السطور بخط عريض ومتباعد، إلى درجة يقول عنه صاحب الحكاية: "وجدت من هذه الكتب كتباً كثيرة، وكثير منها اقتنيته، وهي مكتوبة بخط الأزرق (كاتب حنين)، وهي حروف كبار بخط غليظ، في أسطر متفرقة، وكل ورقة منها كانت بغلظ ما يعادل من هذه الأوراق المصنوعة، يومئذ، ثلاث ورقات أو

70- نفس المرجع، ص 144

71- كان العالم الألماني شتروماير يثني على حنين بن إسحاق؛ لأن اللغة العربية التي نقل بها لليونانيين، خاصة جالينوس، هي التي مكنت اللاتين من معرفتها، فالعربية عوضت السريانية التي اضمحلت وتلاشت، نفس المرجع، ص 150

أربع، وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب، وزيادة وزنه؛ لأجل ما يقابل به وزنه دراهم، وكان ذلك الورق يستعمله بالقصد، ولا جرم أنه لغلظه بقي هذه السنين المتطاوله من الزمان⁷².

قد يكون عمل حنين مستهجنًا وقبيحًا أخلاقيًا، ولكن فعلته لها محاسن، وهي؛ الحفاظ على الكتب من التلف والاهتراء، ناهيك عن أن إنفاق المال على العلماء خير من إنفاقه على أمور غير جدية، وما أكثرها.

رابعًا: أسباب حمى الترجمة

وهنا نعود إلى البداية، لنتساءل مرة أخرى: ما الدافع إلى هذه الحماسة في نقل علوم الأوائل؟ في الحقيقة هناك أطروحات متعددة؛ فالموضوع أسال المداد، وزوايا النظر فيه متعددة، سنعمل على تقديم بعضها على سبيل الاستئناس لا الحسم النهائي.

أ- جواب د. يمتري غوتاس⁷³: الصراع الحضاري مع البيزنطيين؛ هو الدافع للترجمة.

يؤكد غوتاس على أن حركة الترجمة الحقيقية قد بدأت مع العصر العباسي، ولم يكن الأمر، من وجهة نظره، ترفًا فكريًا، أو رغبة هذا الحاكم أو ذاك؛ بل المسألة كانت حاجة ملحة، فالعلم أصبح مكونًا أساسيًا في البنية الثقافية للمجتمع العباسي، إلى درجة أصبحت فيه الترجمة ظاهرة اجتماعية، ولإقناعنا بذلك، يقدم غوتاس أربع حجج:

أولاً: استمرارية الترجمة عبر الزمن، بعبارة أخرى؛ لو كانت مجرد ترف أو رغبة حاكم، لما عمرت لمدة طويلة؛ حيث بدأت في أواخر القرن السابع الميلادي وبداية الثامن، واستمرت إلى القرن العاشر الميلادي.

ثانيًا: كانت الترجمة قضية دولة بأكملها، وساهم فيها الخلفاء والوزراء والأغنياء والعلماء، وهنا نذكر تلك العائلة العالمية والغنية التي أبلت البلاء الحسن في الترجمة، ونقصد عائلة بني شاكرك، والتي أنجبت العلماء، ودعمت الترجمة بشكل خاص، وأرسل أفرادها بعثات من أجل استجلاب الكتاب المترجمين ودعمهم ماديًا أيضًا. ونذكر منهم؛ (محمد، وأحمد، والحسن)، وكان هؤلاء يهتمون كثيرًا بنقل الكتب إلى اللغة العربية، وكانت لهم دار مخصصة لإقامة المترجمين، وأهم من اشتغل عندهم: حنين بن إسحاق، وحبش بن الحسن الأعسم، وثابت بن قرة، وغيرهم.

72- نقلًا عن الجبوري، ص 43

73- ديمتري غوتاس، "الفكر اليوناني والثقافة العربية: حركة الترجمة اليونانية- العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر"، ترجمة وتقديم: نقولا زيادة المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2003م. وسنعمد نحن على الدراسة التي أنجزها محمد أبلأغ، وهي بعنوان «ما قبل بيت الحكمة»، والتي جاءت متضمنة في سلسلة ندوات في جامعة محمد الخامس، «مؤسسات العلم والتعليم في الحضارة الإسلامية»، تنسيق بناصر البعزاتي، ط1، 2008م، من الصفحة 45 حتى 64

إن مشروع الترجمة، لم يكن حكرًا على طبقة اجتماعية أو دينية؛ بل ساهمت فيه كل الفئات المتواجدة في التربة الإسلامية، من مسلمين وغير مسلمين، سنة وشيعة، وقواد عسكريين، ... إلخ.

ثالثًا: رعاية الدولة للترجمة، ودعمها لها بصفة مؤسسية، خاصة في عهد المأمون، بعبارة أخرى؛ كان يوجد دعم مادي، وتمويل كامل لمشاريع الترجمة (نفقة السفر للبحث عن الكتب، نفقات إقامة المترجمين وأجورهم، نفقات الورق والحبر، ... إلخ)، إضافة إلى تعيين الخليفة لصاحب بيت الحكمة؛ أي لرئيس يكون هو المسؤول المباشر لتسيير حركة الترجمة بكل خطواتها.

رابعًا: متابعة للترجمة على أسس منهجية، وهو، حسب غوتا، دليل للقول: إن الترجمة تحولت إلى ظاهرة اجتماعية زمن حكم بني العباس؛ حيث لم تكن الترجمة اعتبارية؛ بل أصبحت تخضع لضوابط صارمة، ولضبط فيلولوجي دقيق، يتبع مسار الكلمات وتلونها بتغير اللغات وتغير الثقافات، وهو ما تجلى بوضوح عند أكبر المترجمين آنذاك، أمثال: حنين بن إسحاق. يجمع الباحث (محمد أبلان)، ما قاله غوتاس في العبارة الآتية: "هذه العملية؛ أي عملية الترجمة، هي بمثابة ظاهرة اجتماعية، لأنها كانت بمثابة تقليد علمي قائم بذاته، وكانت له استمرارية عبر الزمن، وشاركت فيه أجيال من العلماء"⁷⁴. وللجواب عن: ماهي الأسباب الدافعة لبروز هذه الظاهرة الاجتماعية؟ يعترف غوتاس أن الأمر جدّ معقد، بحيث يصعب تحديد أسباب واضحة، ولكن، على الرغم من ذلك، سيقدم بعض ما يراه أساسيًا⁷⁵.

• **العوامل الاقتصادية:** بدايةً، كانت هناك عوامل اقتصادية مهيأة للترجمة؛ فالفتح الإسلامي شمل المناطق التي كانت بحوزة النفوذ الفارسي، وتلك التي كانت بحوزة النفوذ البيزنطي، مما أدى إلى توحيد الشرق والغرب، ونتج عنه ازدهار فلاحى وتجاري كبير.

• **إدخال صناعة الورق:** جرّاء التلاقيات التي أحدثتها الفتوحات، استطاع المسلمون إدخال صناعة الورق من عند الصينيين في أواسط القرن الثامن، وأقيمت معامل للورق تطورت تقنياتها استجابةً لتنوع الطلبات؛ وثائق رسمية، وأوراق من أحجام مختلفة، حسب نوعية التصنيف، والنسخ، وتفسير الكتب.

• **العوامل الثقافية:** يركز غوتاس، هنا، على الجانب المسيحي؛ إذ يبين أن حركة الترجمة قام بها المسيحيون داخل المجتمع الإسلامي؛ نظرًا لتمكنهم من اللغة السريانية، والتي كانت الوسيط بين اليونانية والعربية، ناهيك عن أن الكتب المترجمة، كانت متواجدة في المراكز ذات الأغلبية المسيحية؛ كالرها، وقنسرين، ونصيبين، والموصل، وجنديسابور. إضافةً إلى ذلك، كانت هناك مراكز كحاران؛ وهي مدينة كان يسودها الصابئة، ومرو التي جمعت ديانة فارسية قديمة والمسيحية.

74- محمد أبلان، ص 50. المرجع أعلاه.

75- هذه العوامل المحركة للترجمة، أخذتها من المرجع أعلاه، ص 51-52

• عوامل متعلقة بالصراع الحضاري:

إن الحرب الشاملة التي أعلنها المأمون العباسي ضد البيزنطيين، كان فيها عنصر إيديولوجي حضاري؛ حيث يقول: "لقد صور البيزنطيين على أنه حري بهم أن يتلقوا الضربات الإسلامية، ليس لأنهم كانوا كفرة فحسب، ولكن لأنهم كانوا جهلة ثقافياً، وكانوا من الناحية الثقافية أدنى من المسلمين، وحتى من أجدادهم اليونان القدماء. وعلى العكس من ذلك، فإن المسلمين، فضلاً عن كونهم أرفع شأنًا بسبب الإسلام، فقد كانوا، أيضاً، أعلى شأنًا؛ لأنهم تفهموا العلوم والحكمة اليونانية القديمة، وكانوا قد ترجموا كتبهم إلى العربية. وهذا التفوق نقل حتى إلى الإسلام نفسه باعتباره ديناً، إن البيزنطيين قلبوا ظهر المجن للعلم القديم بسبب النصرانية، فيما تقبله المسلمون بسبب الإسلام".

يعلق محمد أبلّاغ على محاولة غوتاس لتفسير سبب الترجمة، بقوله: إنها محاولة جادة، خصوصاً في جانبها المتعلق بالإيديولوجيا، فانتقال الدولة الإسلامية من الخصوصية العربية التي جسدها الأمويون، إلى مرحلة الإسلام الكوني في العصر العباسي، والذي أصبح فيه الفاعلون من كل الأجناس، ومن كل الثقافات، فكان لزاماً على الدولة العباسية، وضماناً لبقائها واستمرارها، أن تصهر الكل في جوفها⁷⁶. لكن، هنا، ينبه محمد أبلّاغ؛ أن موقف غوتاس لم يلتفت إلى السبب الأهم، وهو: أن هناك التقاء بين تصور الفلسفة اليونانية، والتصور الإسلامي لله، خالق الكون ومبدعه، المجرد بشكل كلي عن المادة.

ب- جواب كارل هينريش بكر: مواجهة الحركات الباطنية: هو سر الترجمة

هو أحد كبار الباحثين الألمان، الذين يؤكدون على أن القرار التاريخي الذي ألحّ عليه المسلمون في العصر العباسي، نابع من استراتيجية ثقافية وسياسية واضحة؛ فالأمر في حقيقته، ليس مجرد رغبة نابعة من دوافع ذاتية لحاكم مستنير؛ بل له أسباب موضوعية مرتبطة بخيار الدولة العباسية الإيديولوجي، ضدّ كل الحركات الباطنية التي التقت بالمد الشيعي آنذاك، فترجمة الفكر اليوناني؛ كان بمثابة حصن وصدّ لهذا التوجه "الغنوصي" المهدد. يقول هينريش بكر: "فكأنما الإسلام الرسمي قد تحالف، إذن، مع التفكير اليوناني والفلسفة اليونانية، ضد "الغنوص" الذي كان خليطاً من المذاهب القائمة على النظر والمنطق، وعلى مذاهب الخلاص. من هنا، نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية، وهي حماسة غير مفهومة، ولا معهودة لدى الشرقيين. وقد اعتاد الناس أن يفسروا هذا، حتى الآن، بإرجاعه إلى ميل هذا الطاغية المستنير إلى العلم وحبّه له. لكن، إذا كانت الرغبة في ترجمة كتب الأطباء القدماء، قد نشأت عن ما اشتهرت به المدارس الطبية الكبرى من حاجة عملية إلى هذه الكتب، فلعل ترجمة كتب أرسطو قد نشأت عن حاجة عملية كذلك، وإلا فإنه إذا كانت

76- المرجع السابق، ص 53

المسألة مسألة حماسية للعلم، ورغبة خالصة في تحصيله وحسب، لكان هوميروس أو أصحاب المآسي، من بين الذين ترجمت كتبهم أيضاً⁷⁷.

يضيف سالم يفوت، عطفًا على ما قاله هنريش بكر: إن ذات الاستراتيجية؛ هي التي جعلت المأمون يكرس الاعتزال مذهبًا رسميًا للدولة، بوصفه أكثر المذاهب الكلامية مناصرة للعقل، ودفاعًا عن استعماله في السمع: "وإن وقع تضاد بين العقل والسمع؛ فالغلبة للعقل" كما يؤكد المعتزلة⁷⁸. لقد تحول الدفاع عن العقل ومناصرته، مع ترجمة تراث الأوائل شأنًا تتكلف به الدولة، وتعتبره أحد خياراتها الإيديولوجية الأساسية، إلى درجة أن الدولة عقدت الصفقات لشراء الكتب والمخطوطات القديمة، وتدفع في ذلك الأثمان الغالية، وتسخر كل الإمكانيات، وتطرق كل الأبواب، وتسلك كل السبل، للعثور على الكنوز الخبيئة والحبيسة في المكتبات والأقبية العالمية آنذاك.

ج- جواب جورج صليبا: تعريب الديوان محرك الترجمة

يؤكد جورج صليبا في كتابه "العلوم الإسلامية وقيام النهضة الأوروبية"⁷⁹؛ أن عملية الترجمة وإرادة استملاك المسلمين للعلوم القديمة، تمت مباشرة مع عملية إصلاح الديوان وتعريبه من طرف عبد الملك بن مروان الأموي، فمن المعروف أن هذا الخليفة، هو من سكّ الدينار العربي متخليًا عن النقود البيزنطية، بالإضافة إلى أنه أمر بتعريب الدواوين التي كان يشغل بها الأجانب على الخصوص، وكما هو معلوم، فإن موظف الديوان يحتاج إلى عمليات حسابية معقدة لحساب الخراج، وهو ما يجعل ترجمة الرياضيات أمرًا ملحًا، ناهيك عن أن وقت دفع الضرائب مرتبط بالتقويم، مما يفرض المعرفة الفلكية، وهو ما يؤكد أن ترجمة الكتب الفلكية قد بدأت في وقت مبكر عن العصر العباسي، ولتأكيد هذا الأمر، يضرب جورج صليبا مثالًا واضحًا، وهو: ترجمة الحجاج بن مطر لكتاب "المجسطي" لبطليموس سنة 829م، فهو تم في عهد المأمون، ولكن الاطلاع على الترجمة يثير الدهشة، فهي ترجمة قد تمت بلغة عربية سليمة ونقية، ومصطلحات تقنية ناضجة وممتازة، مع تصحيح للأخطاء، وسهولة في القراءة، مما يعني؛ لو كانت الترجمة قد تمت في عهد المأمون حقًا، فلا محالة، ستكون رديئة، كأي محاولة أولى في أية ترجمة جديدة، فأكد أن الحجاج بن مطر كانت بين يديه ترجمات سابقة، مكنته من أن يقدم ترجمته الأكثر دقة.

يرى صليبا أن تعريب الديوان كان محركًا نحو المزيد من الترجمة، ويفسر ذلك كالتالي: فمادام أن الأجانب هم من كانوا يسيطرون على الدواوين؛ فإن التعريب، أصبح يهدد عملهم؛ لأن العربي سيتمكن من

77- كارل هينريش بكر، "تراث الأوائل بين الشرق والغرب"، ضمن التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، جمع عبد الرحمن بدوي، القاهرة، ط 3، 1965م. نقلًا عن سالم يفوت في دراسته «حركة الترجمة في عصر النهضة الأول: بيت الحكمة»، جاءت متضمنة في سلسلة ندوات في جامعة محمد الخامس، «مؤسسات العلم والتعليم في الحضارة الإسلامية»، تنسيق: بناصر البعزاتي، ط1، 2008م، ص ص 71- 72

78- المرجع أعلاه، ص 72

79- د. جورج صليبا، «العلوم الإسلامية وقيام النهضة الأوروبية»، ترجمة: د. محمود حداد، دار أبو ظبي للثقافة والتراث / كلمة، ط 1، 2011م.

احتلال مكانهم بسهولة، وهو ما سيجعلهم في بطلالة، ويضطرهم إلى رفع الإيقاع، والذهاب إلى معلومات أكثر دقة، وإلى المزيد من الاجتهاد لخلق حاجات جديدة، حفاظاً على مواقعهم، وضماناً لبقاءهم، مما يستدعي الاتجاه نحو المصادر لاسترجاع مكانتهم. باختصار، يريد صليبا أن يؤكد على أن الترجمة كانت جراً تنافس كبير بين البيروقراطيين؛ فإصلاحات عبد الملك بن مروان الخاصة بالدواوين، أجبرت الموظفين الأجانب خاصة، على اللجوء إلى المعرفة الأكثر تخصصاً، تأميناً لرزقهم، مما زاد من حمى الترجمة.

إن أطروحة جورج صليبا، توضح؛ أن الترجمة، لم تكن حركة من أجل تقليد ثقافة أرقى؛ بل الأمر تم وانطلق لدواعي داخلية، وبالضبط، من أجل أغراض إدارية صرفة.

خلاصة:

نخلص إلى أن فكرة كون الترجمة، كانت حكرًا على العصر العباسي فقط، وهي فكرة ليست صحيحة بالمطلق؛ فاتصال العرب بالمؤلفات المكتوبة باللغات الفارسية أو اليونانية أو السريانية أو حتى السنسكريتية، من الصعب تحديد زمانه بضبط دقيق؛ لأن التقاليد العلمية والنشاط الفكري في شمال الجزيرة العربية، لم يتوقف قط، وأكد سيكون العرب قد اتصلوا بهذه الثقافة، وتعرفوا عليها، وإن لم يكن الأمر بشكل منظم ومنهجي، ولكن، على الأقل، كانوا يأخذون منه حسب الحاجات العملية، والعرب لم يكونوا معزولين؛ بل كانوا على صلة دائمة بالثقافة الساسانية، وبلغتها الفهلوية، والبعض الآخر كان على دراية بالثقافة البيزنطية. والصراع بين الدولتين العريقتين، لم يكن صراعاً عسكرياً فقط؛ بل كان صراعاً فكرياً، وهو ما كان صداه يصل إلى العرب بالضرورة، سواء جراء الرحلات أو التجارة⁸⁰. فالتجار العرب قبل الإسلام، كانوا على احتكاك بما يروج في شمالهم، من معارف وتحضر؛ إذ لم يكونوا متغيبين عن ما يروج في شمالهم من حراك ثقافي وغلبيان سياسي، مما يجعلنا نؤكد على أن الترجمة كانت من قبل الإسلام، هذا إذا فهمنا، طبعاً، من الترجمة محاولة نقل تراث الآخرين ولو شفوياً، إلا أن هذه الترجمة ستزداد قوة بعد الإسلام، وإن بدأت بشكل محدود ويغلب عليها طابع الفضول، كما عند خالد بن يزيد، لتتحول، شيئاً فشيئاً، إلى ترجمة تخضع لضوابط، أملتها القرارات السيادية في العصر الأموي؛ بتعريب الديوان؛ فكتاب الديوان، وخاصة المسؤولين عن الخراج، يحتاجون إلى الحد الأدنى من الحساب، مما يعني؛ الحاجة إلى الرياضيات، ومن ثم، ضرورة تعريبه. والحد الأدنى من معرفة التوقيت والتقويم، مما يعني؛ الحاجة إلى الفلك، ومن ثم، ضرورة ترجمة أساساته أيضاً، وهكذا في كل ما يخص تسيير دواليب الإدارة. لكن الترجمة ستعرف في العصر العباسي منعطفاً جديداً؛ حيث سيعمل خلفاء بني العباس، كما رأينا، إلى مأسسة عملية الترجمة، ونقل تراث الأوائل، وذلك بتشكيل بيت للحكمة، يسهر على هذه العملية، إلى درجة أن الترجمة أصبحت ظاهرة

80- البعزاتي، ص 117

اجتماعية بامتياز، فاستحق أن يكون عصرهم عصرًا ذهبيًا للترجمة؛ إذ ستدخل المنطقة الإسلامية في تلافح حضاري وثقاف قل نظيره.

لقد لعبت الترجمة، بحق، دور الرابط الذي سمح للحضارة الفتية أن تأخذ الشعلة، وتستمر، وتعطي دفعًا ونفسًا جديدًا، جعل الإنسانية ترتقي إلى الأمام بإضافات جديدة.

إن استجلاب علوم الأوائل إلى الحضارة الإسلامية، أدى إلى استئناف العلم لمساره وبأفق مختلف تمامًا، فمع المسلمين تم تصحيح وتدقيق منجزات القدماء، كما تم ترتيب الأفكار، وإعادة ضبط الإشكاليات؛ بل قاموا بالتشكيك في بعض المعطيات، ليس التقنية فقط؛ بل حتى النظرية منها، وبحثوا عن حلول لها، سواء في الرياضيات، أو الفلك، أو الطب،... إلخ.

المصادر والمراجع:

- ابن النديم، «الفهرست»، دار المعرفة، بيروت- لبنان، دون تاريخ.
- ابن أبي أصيبعة، «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، تحقيق: الدكتور عامر النجار، دار المعارف، القاهرة، الجزء الأول، طبعة 1996م.
- الخوارزمي الكاتب، «مفاتيح العلوم»، دراسة وتصدير: د. عبد الأمير الأعسم، دار المناهل، لبنان، ط1، 2008م.
- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد السلام الشدادتي، دار الجيل، الدار البيضاء، ج3.
- أحمد أمين، «ضحى الإسلام»، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة التآليف والترجمة والنشر، الطبعة السادسة، سنة 1964م.
- د. جورج صليبا، «العلوم الإسلامية وقيام النهضة الأوروبية»، ترجمة: د. محمود حداد، دار أبو ظبي للثقافة والتراث / كلمة، ط1، 2011م.
- الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا، «تاريخ الفلسفة اليونانية»، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط1، 1993م.
- الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا، «المرجع في تاريخ العلوم عند العرب»، دار العودة، بيروت، طبعة 1998م.
- الدكتور نجيب بلدي، «تمهيد لتاريخ الإسكندرية وفلسفتها»، دار المعارف، مصر، 1962م.
- سعيد البوسكلاوي، "مدرسة الإسكندرية وبعض عناصر استمرارها في العصر الإسلامي"، ضمن كتاب جماعي بعنوان "مؤسسات العلم والتعليم في الحضارة الإسلامية"، تنسيق: بناصر البعزاتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، طبعة 2008م.
- جورج سارتون، "العلم القديم والمدينة الحديثة"، ترجمة: عبد الحميد صبرة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، طبعة 2010م.
- الدكتور علي حسن موسى، «أعلام الفلك في التاريخ العربي»، منشورات وزارة الثقافة السورية، طبعة 2006م.
- بناصر البعزاتي، «الفكر العلمي والثقافة الإسلامية»، دار الأمان، الرباط، 2015م.
- جان شارل سورنيا، «تاريخ الطب»، عالم المعرفة، الكويت، العدد 281، مايو/ 2002م.
- تومس كون، «بنية الانقلابات العلمية»، ترجمة: سالم يفوت، دار الثقافة، ط1، 2005م.
- الدكتور يحيى وهيب الجبوري، «بيت الحكمة ودور العلم في الحضارة الإسلامية»، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2006م.
- سالم يفوت، «حركة الترجمة في عصر النهضة الأول: بيت الحكمة»، ضمن سلسلة ندوات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، ط1، 2008م.
- الدكتور أحمد السري، «حنين بن إسحاق في كتابات ألمانية»، وهي مداخلة ضمن كتاب تاريخ العلوم في الإسلام، الرابطة المحمدية للعلماء، المجلد الأول، ط1، 2014م.
- محمد أبلأغ، «ما قبل بيت الحكمة»، ضمن سلسلة ندوات في جامعة محمد الخامس، «مؤسسات العلم والتعليم في الحضارة الإسلامية»، تنسيق: بناصر البعزاتي، ط1، 2008م.
- د. محمد بنعمر، «الدرس اللغوي عند الأصوليين»، في دراسة موجودة في موقع مركز نماء للدراسة والأبحاث. nama-center.com

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun_sm



مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط - أكادال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com